بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسيّ ثم القرطبي، رضي الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما آختلف المَلَوان(1)، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعيت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرا . جعل أمثاله عِبرًا لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن آستبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »(2) . خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا . فقَرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخِيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لِلّهِ أهلين مِنّا"(3) قالوا : يارسول الله، مَن هم ؟ قال : "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه آبن ماجه في سننه، وأبو بكر البَزّار في مُسنده . فما أَحَقّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

(1) الملوان : الليل والنهار . (2) آية ٣٨ سورة الأنعام . (3) في سنن آبن ماجه : "من الناس".

ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه . فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »(١) . ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجهِله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ؛ وآرتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجةً عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسلم . فالواجب على مَن خصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبّر حقائق عبارته ؛ ويتفهّم عجائبه، ويتبيّن غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ »(٢) . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣) . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبّره حق تدبّره؛ ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه، ولا يلتمس الهُدَى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشكِلا، وتحقيقَ ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٤) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »(٥) . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعيَةَ كتابه، وآذاننا مواردَ سننِ نبيّه ؛ وهِممنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رِضَا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم المِلّة والدِّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى آستقل بالسُّنّة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمرى، وأستفرِغَ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٢) آية ٢٩ سورة ص . (٣) آية ٢٤ سورة القتال .
(٤) آية ٤٤ سورة النحل . (٥) آية ١١ سورة المجادلة .

فيه مُنّتِي ؛ بأن أكتب فيــه تعليقًا وجيزًا، يتضمّن نُكَتًا من التفسـير واللغات ، والإعراب والقراءات ؛ والردّ على أهل الزَّيْغ والضلالات ، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لمـا نذكره من الأحكام ونزول الآيات ؛ جامعًا بين معانيهما، ومُبَيِّنًا ما أشـكل منهما ؛ بأقاويل السلف، ومَن تبعهم من الخَلَف . وعَمِلتُه تذكرةً لنفسي ، وذخيرةً ليوم رَمْسِي ،وعملاً صالحا بعد موتى . قال الله تعالى : « يُنَبَّأُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2] . وقال تعـالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إذا مات الإنسان ٱنقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له" .

وشرطي في هذا الكتاب : إضافة الأقوال الى قائليها، والأحاديث الى مصنِّفيها ؛ فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله . وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبْهَمًا، لا يَعرف مَن أخرجه إلا من ٱطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نُشير الى جُمَل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قَصَص المفسرين، وأخبار المؤرّخين، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين ؛ وٱعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائلَ تُسْفِر عن معناها ، وتُرْشِد الطالب الى مقتضاها ؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكما أو حكمين فما زاد، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسـير والتأويل ، هكذا الى آخر الكتاب .

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لمـا تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهــه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّــه ؛ إنه سميع الدعاء ، قريب مجيب ؛ آمين .

---

(١) المنة (بالضم) : القوة . (٢) آية ١٣ سورة القيامة . (٣) آية ٥ سورة الانفطار .

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شئ، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وعَزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجاباً في بعض العبادات، ونَدْبًا في كثير من الأوقات؛ ويُزْجرون عنها إذا أُجْنبُوا[1]، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضـه، لضعفت ولاَّ ندكّت بثقله ، أو لتضعضعت له وأنَّى تطيقه ؛ وهو يقول — تعالى جَدّه — وقوله الحق : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»[2] . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هـذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمـذيّ عن أبي سعيد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " يقول الربّ تبارك وتعـالى مَن شَغله القرآنُ وذِكرِى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " . قال : هـذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمـد الدّارميّ السَّـمَرْقَنْديّ في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة ، والمِئون مثل الإنجيل ، والمثانى مثل الزّبور ، وسائر القرآن بعدُ فضـلٌ . وأسند عن الحارث

(١) في نسخة : ويؤجرون عنها إذا أجيبوا . (٢) آية ٢١ سورة الحشر .

عن عليّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى قال : سمعت[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْل مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن آبتغى الهُدَى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبُه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا مَن علِم عِلمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك ياأعْور[2] " .

« الحارث » رماه الشعبيّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبيّ ؛ لأن الشعبيّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبيّ عوقب لقوله فى الحارث الهَمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب « الردّ على من خالف مصحف عثمان » عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما آستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةُ مَن تمسك به ونجاةُ مَن آتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلَق عن كثرة الردّ فآتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حرفٌ ولا ألفينّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصِّفر من كتاب الله " . وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

---

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف فى بعض كلماته وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ ، شبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليـه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ، أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليـه الناس . ومن قال : مأدَبة ، فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هـذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتـه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأوّل أعجب إلىّ .

وروى البخارىّ عن عثمان بن عفّان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " مَثَلُ المؤمِن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة رِيحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمِن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافِق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر " . وفى رواية : " مثـل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخارىّ : " مثـل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانىّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح[1] . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لايخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصـلوا إليها : الحديث . ثم هـذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم) .

السُّلَمِيّ كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عَمِلتَ بالذى عَلِمت . وروى الدارمىّ عن وهب الذمارِيّ قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد[(١)]: السَّفَرة الملائكة ، والأحكامُ[(٢)] الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المـاهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام الْبَرَرَة والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعْتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التتعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة؛ ودرجات المـاهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن أَلِف حرف ولام حرف وميم حرف" . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رُوِيَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفّة ؛ فقال : "أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقِيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْماوَيْن[(٣)] فى غير إثم ولا قطع رَحِم" فقلنا : يا رسول الله، كلنا نحب ذلك ؛ قال : "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلمُ[(٤)] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ وأربعٌ خير له من أربع ومِن أعدادهنّ من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن نَفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيي التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف .

(٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الغرض وذوو الأحكام ، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال .

(٣) «كوماوين» تثنية كوماء؛ أى مشرفة السنام عاليته .

(٤) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه وبتشديد اللام من التعليم ، وبتخفيفها من العلم .

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما آجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكَرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه " .

وروى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة". قال الترمذىّ : حديث حسن غريب. وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : " يجىء القــرآن (١) يوم القيامة فيقول ياربّ حُلّهْ فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقــول يارب آرض عنه فيرضى عنــه فيقال له آقرأ وآرق و يزاد بكل آية حسنة " . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ". وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنــة آقرأ وآصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه " .

وأسـند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صــلى الله عليــه وسلم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحَى إليه و يقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصــعد درجة حتى ينجز ما معه من القــرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم " .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمــل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقــد أخذ النبوّة كلها" . قال : وحدّثنا محمد بن يحيي المَرْوَزِيّ أنبأنا محمد وهو ٱبن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النــار" . وقالت أم الدَّرْداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لهــا : ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنــة ، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكيّ . وقال ٱبن عباس : من قرأ القرآن وٱتبع ما فيه هــداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ »(١) . قال ٱبن عباس : فضَمِن الله لمن ٱتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . ذكره مكيّ أيضا . وقال الليث : يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن ؛ لقول الله جل ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٢) . و « لَعَلَّ » من الله واجبة .

وفي مُسْنَد أبي داود الطَّيَالسيّ — وهو أوّل مُسْنَد أُلِّف في الإسلام(٣) — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتــين ومن قام بألف آية كُتب من المقنْطِرين" . والآثار في معنى هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله الموفق للهداية .

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه . (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٣) قوله : « وهو أوّل مسند ... » الخ . قال صاحب كشف الظنون : « والذى حمل قائل هــذا القول تقــدم عصره على أعصار من صنف المسانيــد ، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبي داود ، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصــة عن أبي داود . ولأبي داود من الأحاديث التي لم تدخل هــذا المسند قدره أو أكثر؛ كما ذكره البقاعى في حاشية الألفية » . وقد توفي الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، واختلاف النــاس فى ذلك

روى البُخَارِىّ عن قتادة قال: سألت أنَسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع قراءته يقول: «الحمدُ لله رَبِّ العالَمِين» ثم يقف «الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف، وكان يقرؤها «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ». قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن النـاس صَوْتًا مَن إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى"(١). وروى عن زياد النُّمَيْرِىّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: آقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسَيّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وآبن سِيرِين والنَّخَعِىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول: أصلحك الله! إنّ الأئمـة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التّطريب بعدُ. وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»(٢) الآية.

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى آبن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفى بعض النسخ: «رئيته» بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن. (٢) آية ٤١، ٤٢ سورة فصلت.

فقال : لا يعجبني ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، واحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائى . و بقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم . و بقول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا . و بما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفَتْح في مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع في قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعيّ وابن المبـارك والنَّضر بن شُمَيْل ، وهو اختيار أبي جعفر الطبريّ وأبي الحسن بن بَطّال والقاضى أبي بكر بن العربي وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لمـا ذكرناه و يأتى . وأما ما احتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنمـا هو من باب المقلوب ؛ أى زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخَطّابيّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحـديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب، كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ؛ فقدّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح .

قال الخطابيّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم" . أى الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبي هريره رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن". وروى عن عمر أنه قال : " حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن " .

قلت : وإلى هـذا المعنى يرجع قولُه عليه السـلام : " ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن " أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن، كذلك تأوّله عبد الله بن أبي مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبي مليكة يقول : قال عبد الله بن أبي يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فاتبعناه

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما ٱستطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إني لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسّنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يهذّ(١) في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها ؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزَيَّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأوّل هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته وٱستنار بضيائه . وقد قيـل : إن الأمر بالتزيين ٱكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك ، أي زينـوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعـالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ »(٢) أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِـعْ قُرْآنَهُ »(٣) أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا ؛ أي قراءة . وقال الشاعر(٤) في عثمان رضي عنه :

ضحّوا بأشمطَ(٥) عُنوانُ السجود به * يقطّع الليـلَ تسبيحًا وقـرآنا

أي قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به ، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى ٱستغنيت . وفي الصحاح : تغنى

---

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .

(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التَّميمى :

كلانَا غَنِيٌّ عن أخيـه حَياتَه * ونحن إذا مِتْنَا أشـدُّ تغانيـا

و إلى هـذا التأو يل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سـعد بن أبي وَقّاص . وقد رُوى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهَوَيْه ،أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . و إلى هذا التأو يل ذهب البخارى محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ» (١) . والمراد الآستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأو يل . وقيل : إن معنى يتغنّى به ، يتحزّن به ؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية ؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِي ، وآحتجوا بمـا رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأزِيز المِرْجَل من البكاء . الأزيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن ؛ وعَضدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ عليّ" فقرأت عليه سورة « النسـاء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » (٢) فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأو يلات ، ليس فيهـا ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيهـا . وقال أبو سعيد بن الأعرابى فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم (٣) مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأو يل الخامس — ما تأوله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيـل تأو يل آبن عُيَيْنـة فى قوله : "يتغنّ" يستغنى؛ فقـال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا. وسُئل الشافعيّ عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا، لو أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال " يتغنّ " علمنا أنه أراد التغنّى . قال الطبريّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنّى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغنّ بالشّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِنـاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى آستغنيت فليس فى كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُنـاخ طَوِيلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى فى هـذا الموضع الإقامة، من قول العرب : غنِيَ فلان بمكان كذا أى أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كأَن لَم يَغنَوا فيها »(١) وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متْنَا أشدُّ تغانِيَا *

فإنه إغفال منه ؛ وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا فى فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله فى الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرى من أنه لم يَرِد فى كلام العرب تغنى بمعنى آستغنى ، فقد ذكره الجوهريّ كما ذكرنا، وذكره الهَرَوِيّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة؛ منها قول آبن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام. وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصّ وداوَيْت العَليل، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها. وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : " يتغنّ " الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أَوْلَى لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مرويّ عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

صحابيٌ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال آبن وهب في حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أَذِنَ الله لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به[١] " . قال الطبريّ : ولو كان كما قال آبن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم، أو من قول أبي هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أي يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذي سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس آربعوا[٢] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتي . وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد آختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّى كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد آحتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة ما رواه آبن أبي شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن عليّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغَنّوا به وآكتبوه فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصِّياً[٣] من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ، جِيلًا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوى : يعني ما رضي الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أي يجهر به و يحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة . (٢) قوله : « آربعوا » أي كفّوا وارفقوا . (٣) التفصى : التفلّت والخروج .

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيـة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة[1] الواحدة شبهات، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير له سورة «الفتح» على راحلته فرجّع فى قراءته؛ وذكره البخارىّ وقال فى صـفة الترجيع : آءآء آء، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة؛ كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من آنضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ وإذا آحتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع. وروى آبن جُريج عن عطاء عن آبن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن" . أخرجه الدارَقُطْنىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأَحْرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن، فقال وقوله الحق : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[2] . وقال تعالى : «لَا يَأْتِيـهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»[3] .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعيُهم، وخاب

---

(١) سيذكر المؤلف فى باب (ذكر معنى الصورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .
(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٢ ٤ سورة فصلت .

عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه؛ جهلا بدينهم، ومُرُوقًا عن سُنّة نبيهم، ورَفضًا لسِيَر الصالحين فيه من سَلَفهم، ونزوعًا إلى ما يُزَيِّن لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا، فهم في غَيِّهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم.

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزِين وأبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث حُذَيفة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "اقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها وإياكم ولُحُون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنّوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم". اللحون: جمع لَحْن، وهو التّطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء.

قال علماؤنا: ويشبه أن يكون هذا الذي يفعله قرّاء زماننا بين يدى الوعاظ وفي المجالس من اللحون الأعجمية التي يقرءون بها، ما نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. والترجيع في القراءة: ترديد الحروف كقراءة النصارى. والترتيل في القراءة هو التأنّي فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهًا بالثّغر المرتّل، وهو المشبّه بنَوْر الأقحوان، وهو المطلوب في قراءة القرآن؛ قال الله تعالى: «وَرَتِّلِ القرآن ترتيلا»(1). وسُئلت أمّ سَلَمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته؛ فقالت: مالكم وصلاته! [كان يصلّى ثم ينام قدر ما صلّى، ثم يصلى قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح،](2) ثم نعتت قراءته، فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفًا حرفا. أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى: «وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(3). وقال تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»(4). روى مسلم عن أبي هريرة

(1) آية ٤ سورة المزمل.
(2) الزيادة عن سنن الترمذى وأبى داود.
(3) آية ٣٦ سورة النساء.
(4) آية ١١٠ سورة الكهف.

قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ ٱسْتُشْهِد فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عمِلت فيها قال قاتلتُ فيك حتى ٱستشهدت قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرفها قال فما عمِلتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمتُه وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلمتَ العــلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِىَ فى النار ورجلٌ وَسّع الله عليــه وأعطاه من أصناف المــال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فــما عمِلتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار ".وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رُكْبَتِىّ فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النــار يوم القيامة " . أبو هريرة ٱسمه عبــد الله، وقيل: عبــد الرحمن ، وقال : كُنِّيتُ أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رســول الله صلى الله عليه وســلم فقال : " ما هذه "؟ قلت : هِرّة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهــذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى . وروى عن النبىّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج ٱبن المبــارك فى رقائقه عن العباس بن عبــد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هــذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيــل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم علما ممــا يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجــد عَرْف الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوّذوا بالله من جُبّ الحَزَن " قالوا : يارسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : " وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم في كل يوم مائة مرة " قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هذا حديث غريب . وفي كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن في جهنم لوادياً إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادي كل يوم سبع مرّات وإن في ذلك الوادي لجُبّاً إن جهنم وذلك الوادي ليتعوّذان بالله مِن شرّ ذلك الجُبّ وإن في الجُبّ لحيّة وإن جهنم والوادي والجبّ ليتعوّذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله ". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقي الله في نفسه ويُخْلِص العمل لله؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله . فالذي يلزم حامل القرآن من التّحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذي عن أبي الدّرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله في بعض الكتب — أو أَوْحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدِّين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك(١) الكِبَاش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهم أمَرّ من الصبر إياي يخادعون وبي يستهزئون لأُتِيحنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان " .

وخرّج الطبريّ في كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء حدّثنا المُحَاربيّ عن عمرو بن عامر البَجَليّ عن ابن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو مَن حدّثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونَفْسَه يخدع لو يَشْعُر ". قالوا : يارسول الله، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المُرَائي يُدعَى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك وبَطَل

(١) المسوك (جمع مسك، بفتح ثم سكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع » . وروى عَلْقَمة عن عبدالله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتخذ سُنة مُبْتَدَعة يجرى عليها النـاس فإذا غُيِّر منها شيء قيل : قد غُيِّرت السُّنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كثُر قراؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَيْنة : بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . ورُوى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ»[1] قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره . وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: « إنما مَثَلُ صاحبِ القرآن كَمَثل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذكَره وإذا لم يقم به نَسِيَه ». وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجياً عَفْوَ ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن» . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالمـا بأهل زمانه، متحفّظًا من سلطانه، ساعياً فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدّما بين يديه مايقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما ٱستطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الوَرَع فى دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

(١) آية ٩٤ سورة الشعراء .

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخضوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأن فى جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طُرق الشُّبهات ، ويقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار. وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنب التكبّر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغي له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، ويُرْجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنده؛ ويصاحب مَن يعاونه على الخير ويدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، ويَزِينه ولا يَشِينه، وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مَثَل من هذه حالته إلّا كَمَثل الحمار يحمل أسفارا . وينبغي له أن يعرف المكيّ من المدني ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده فى أوّل الإسلام ، وما ندبهم إليه فى آخر الإسلام ، وما افترض الله فى أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض فى آخره. فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ فى أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المَدَنِيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم فى النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْميّ يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أُفتي الناس فى الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فيها يصـــل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعـــالى : « وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَـا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ »(١) . قال : حَقٌّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر آبن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عِياض ســنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقـــال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فأطّلع علينا من كُوّة؛ فقلنا : الســـلام عليك ورحمة الله؛ فقـــال : وعليكم السلام؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا مِن الله فى عافية ومنكم فى أذًى، و إن ما أنتم فيـــه حَدَثٌ فى الإســـلام ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العـــلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهـــلا للجلوس معهم ،فنجلس دونهم ونسترق السمع ،فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه،وأنتم تطلبون العـــلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـــا تريدون ؛ قال : قلنـــا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومُحْكَمه من مُتَشابهه، وناسخه من منسوخه؛ إذا عرفتم ذلك آستغنيتم عن كلام فُضَيْل وآبنِ عُيَيْنة،، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم «يأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَـا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْـلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»(٢) .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن، وعالمـــا بالفُرْقان؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا، فلايزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى آعتقاده فيتوب من ذلك و يخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه ، وثواب من قرأ القرآن مُعْرباً

قال أبو بكر بن الأنباري : جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحضّ على تعليمه ، وذمّ اللحن وكراهيته — ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبيّ قال حدّثنا محمد — يعني آبن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِيّ عن أبيه عن جدّه عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعربوا القرآن وآلتمسوا غرائبه" . حدّثني أبي قال حدّثنا إبراهيم ابن الهَيْثم قال حدّثنا آدم — يعني آبن أبي إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزيّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبي روّاد عن نافع عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكّل به مَلَك يكتب له كما أُنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أَعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة" . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله آبن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربيّ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن آبن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن آبن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبيّ قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول: بلغني أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى آبن جُرَيْج عن عطاء عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبّوا العرب لثلاث لأني عربيّ والقرآن عربيّ وكلام أهل الجنة عربيّ" . وروى سفيان عن أبي حمزة قال : قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية قال : أَحْسَنُوا، يتعلّمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يَلحن؛ قال : أخّروه .

وعن آبن أبى مليكة قال : قدم أعرابىّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يُقرئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة»؛ فقال: «إن الله برىء من المشركين ورسولِه» . بالجر، فقال الأعرابىّ : أوَ قد برِئَ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منــه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابىّ فدعاه فقــال : يا أعرابىّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليــه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدِمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يُقرئنى ، فأقرأنى هذا سورة «براءة» ، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسولِه»؛ فقلت : أوَ قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابىّ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال: «إن الله برىء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابىّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر آبن الخطاب رضى الله عنه ألّا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود[1] فوضع النحو .

وعن علىّ بن الجَعْد قال سمعت شُعبة يقول : مَثَـلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعَلَّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير . قال آبن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ؛ لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال آبن الأنبارىّ: وجاء عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكِله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا آبن أبى مريم قال : أنبأنا آبن فَرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن آبن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا آبن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »(١) قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر ، وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ :

فإنى بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ * لبستُ ولا من سَوْءةٍ أتقنع(٢)

وسأل رجل عكرمة عن الزّنيم قال : هو ولد الزّنى ، وتمثّل ببيت شعر :

زَنِيم ليس يُعرف من أبوه * بَغِيّ الأمّ ذو حسَبٍ لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنِيم تداعاه الرجال زيادةً * كما زِيد فى عَرْض الأديم الأكارِعُ(٣)

وعنه فى قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ »(٤) قال : ذواتا ظِلّ وأغصان ، ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ * تدعو على فَنَنِ الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف طائرا * ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »(٥) قال : الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة »(٦) . قال ابن الأنباريّ : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهرةٍ وبحرٍ * وما فاهُوا به لهُم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنَة ؟ قال : النُّعاس ، قال زُهير بن أبى سُلْمَى :

لا سِنَةٌ فى طَوالِ الليل تأخذه * ولا ينام ولا فى أمره فَنَدُ(٧)

---

(١) آية ٤ سورة المدثر . (٢) أورد المؤلف فى تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا فى اللسان والكامل للبرد . وفى الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا فى الأصول ، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى ، وسيأتى للصنف فى تفسير سورة النازعات ج ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر ، وقد يستعمل فى غير الكبر .

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ذكر جابر بن عبــد الله ووصفه بالعلم؛ فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ »(1) . وقال مجاهد : أَحَبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رَحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشأم؛ فتجهّز ورَحَل إلى الشأم حتى علم تفســيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ »(2) طَلبتُ ٱسم هذا الرجل [الذى خرج من بيتــه مهاجرا إلى الله ورسوله(3)] أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ٱبن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب، وسيأتى . وقال ٱبن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم، ما يمنعنى إلا مهابته، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كَمَثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روْعة ولا يدرون ما فى الكتاب؛ ومَثل الذى يعرف التفسير كَمَثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لِين عن النبىّ صلى الله عليه وســلم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المُقْسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغــالى فيه ولا الجافى عنه " . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن أفضل من كل شىء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن ٱستخف بالقرآن ٱستخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمــة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمَن والَاهم فقد والَى الله ومن عاداهم فقد ٱستخفّ بحق الله تعالى " .

(1) آية ٨٥ سورة القصص. (2) آية ١٠٠ سورة النساء. (3) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى.

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمتـه أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن، فطهّروها ونظّفوها ما ٱستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبّس كما يتلبس[1] للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ ٱعتم ولبس وٱرتدى وٱستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع[2]. روى شعبة عن أبي حمزة عن ٱبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[3] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن — . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ٱبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، و يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ٱبتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمتـه إذا أخذ في القـراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنـه سلطان الٱستعاذة الذي ٱستعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى و يسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[4]. ومن حرمتـه أن يؤدّي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، و يشهد بالبلاغ

---

(١) يقال: تلبس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى. (٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في نوادر الأصول: «إعرابه». وكلاهما مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" رواه الحاكم والبيهق.

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم آجعلنـا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، عِلمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حِجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالمـاء. ومن حرمته إذا غسله بالمـاء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالمـاء. ومن حرمتـه ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد آشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد آبن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيـه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبَادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم: "أفضل عبـادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشـير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عنـد ما يعرض له شىء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئتَ على قَدَرٍ

يا موسى ؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمته ألا يقال: سورة كذا؛ كقولك: سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء، ولكن يقال : السورة التي يُذكر فيها كذا . —

قلت: هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم: "الآيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأ بهما في ليلة كفتاه" خرّجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود. — ومن حرمته ألا يُتْلَى منكوساً كفعل معلمي الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِيَ الحذق من نفسه والمهارة، فإن تلك مخالفة. ومن حرمته ألا يُقعِّر في قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين في إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلُّفا ، فإن ذلك محدَث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم. ومن حرمته أن يُجَلّل تخطيطه إذا خطه. وعن أبي حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ عليّ رضي الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له: أجِلّ قلمك؛ فأخذت القلم فقطعته من طرفه قطًّا، ثم كتبت وعليّ رضي الله عنه قائم ينظر إلى كتابتي؛ فقال: هكذا، نَوِّره كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمتــه ألا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد عليــه حتى يبغّض إليــه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبــة . ومن حرمته ألّا يُمارِي ولا يجادل فيــه في القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن؛ فيكون قد جحد كتاب الله. ومن حرمته ألّا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء؛ ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه، ولا يرمى به إلى صاحبــه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف؛ روى الأعمش عن إبراهيم عن عليّ رضي الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا في يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا؛ فضربه بالدِّرّة، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

(١) آية ٢٤ سورة الحاقة .

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجد أو مُصَيْحف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينـة الدنيا ؛ وروى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عنـد رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار(١) عليكم". وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق وزينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هُذَيل : " ما هذا " قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : " لعن الله من فعل هـذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضـعه " . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفياً من سَقم ألا يصبّه على كُنَاسة ، ولا فى موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بُقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات ؛ لئـلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال: يا رسول الله، أىّ العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حلّ ارتحل " . —

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبانا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

أهله ودعا. وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال: كان مجاهد وعَبْدة بن أبى لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا: أحضرونا، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن. وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيمىّ قال: من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح؛ قال: فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار. — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضــة أو غيره؛ فيكون كأنه فى صــدرك. ومن حرمته إذا كتبه وشربه سَمَّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيــه فإن الله يؤتيه على قدر نيّتــه. روى لَيْث عن مجاهــد قال: لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض. وعن أبى جعفر قال: من وجد فى قلبه قساوةً فليكتب «يس» فى جام بزعفران ثم يشربه.

قلت: ومن حرمته ألّا يقال: سورة صغيرة. وكَرِه أبو العالية أن يقال: سورة صغيرة أو كبيرة؛ وقال لمن سمعه قالها: أنت أصــغر منها؛ وأما القرآن فكله عظيم؛ ذكره مكىّ رحمه الله.

قلت: وقــد روى أبو داود ما يعارض هــذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيــه عن جدّه أنه قال: ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس فى الصلاة.

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى، والجرأة على ذلك، ومراتب المفسرين

روى عن عائشــة رضى الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وســلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعــدد، علّمه إياهنّ جبريل. قال ابن عطية: ومعنى هــذا الحديث فى مُغيّبات القرآن، وتفسير مجمله ونحو هذا، ممــا لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه، كعدد

النَّفَخات فى الصُّور ، وكِتْبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن ٱبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "ٱتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النـار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النـار" . وروى أيضـا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّمَ فى أحد رواته (١) . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقـد كفر . قال أبو بكر محمد بن القـاسم بن بشار بن محمـد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الرّد: فُسِّر حديث ٱبن عباس تفسيرين: أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بمـا لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتـابعين فهو متعرض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل؛ قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَميم مَعْشرِها * فـتمَّ فى قَوْمِها مُبَـوَّؤها (٢)

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى؛ من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمـة السلف فأصاب فقـد أخطأ ، لحكمه على القرآن بمـا لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ٱبن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر (٣) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، وٱقتضته قوانين العـلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هـذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد بٱجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم وٱسمه مهران، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتسـوّر عليه . تسـوّر الحائط : هجم مثل اللص . ويعـنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وَهْمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ »(١) . وهذا فاسد؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الآقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : " اللّهُمّ فَقِّهه فى الدِّينِ وعَلِّمه التأويل " . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشيء رأى، و إليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأوّل القرآن على وَفق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ، أى رأيه حَمَله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لمـا كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعـالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٢) ويشير إلى قلبـه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغـة ، وذلك غير جائز . وقـد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء . (٢) آية ٢٤ سورة طه .

الباطنيــة فى المقاصد الفاســدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزّلون القرآن على وَفق رأيهــم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنهــا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[١] ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكِم ظاهر التفسير و بادر إلى آستنباط المعانى بمجرّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منــه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضعَ الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآســتنباط . والغرائب التى لاتفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصــول إلى الباطن قبــل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعــالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا[٢] » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكانــ جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبىّ وغيرهمــا يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنــه تورّعا وآحتياطا لأنفسهم مــع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمــة من السلف المــاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن؛ فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول . و بعضٌ يُشْفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه و يقتفى طريقه . فلعلّ متأخّرا أن يفسر حرفاً برأيه و يخطئ فيــه و يقول : إمامى فى تفسير القــرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : ســئل أبو بكر الصــديق رضى الله عنــه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظِلّنى ، وأىّ أرض تُقِلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

قال آبن عطية «وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جُبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليّ». وقال آبن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب. وكان عليّ رضي الله عنه يثني على تفسير آبن عباس ويحضّ على الأخذ عنه، وكان آبن عباس يقول: نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه عليّ رضي الله عنه: آبن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق. ويتلوه عبد الله آبن مسعود وأُبَيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال: شهدت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدّثتكم به، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلتْ أم بنهار، أم في سهل نزلتْ أم في جبل؛ فقام إليه آبن الكوّاء[2] فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله آبن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلُغه المَطِيُّ لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت عليّ بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِي الواحد والإخاذ يُرْوِي الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[3]. ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنباريّ في كتاب الردّ، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذي يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

---

(١) من قولهم: أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أوفى اليشكري كما في تاريخ الطبري في عدّة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعني أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

زيد العَمّى[١] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ آبن جبَل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذَرّ" .

قال آبن عطية : «ومن المبرِّزين فى التابعين الحسن البصرى ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة . قرأ مجاهد على آبن عباس قراءةَ تَفَهّم ووقوف عند كل آية ؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق آبن عباس ، وإنما أخذ عن آبن جبير ؛ وأما السُّدّى فكان عامر الشَّعْبِىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح ؛ لأنه كان يراهما مقصِّرين فى النظر» .

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدّرَوَغْ زَنْ[٢] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وآنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف ، والانتحال للباطل ، وردّ تأويل الأبله الجاهل ؛ وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم ، رضى الله عنهم .

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه بيا عم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على آسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى .

(٢) آسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين ألفين . يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ ؛ كما فى تهذيب التهذيب .

قال ابن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعليّ بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرّب البعيد منها وشفى في الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو عليّ الفارسيّ ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سَنَنهما مكيّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وأبو العباس المهدويّ متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونَضّر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(1) . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(2) . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(3) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(4) . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : ايتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتّخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتُعذّب عليهما أم تُؤجر ، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(5) . وروى أبو داود عن المِقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

(1) آية ٤٤ سورة النحل . (2) آية ٦٣ سورة النور . (3) آية ٥٢ سورة الشورى .
(4) آية ٧ سورة الحشر . (5) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى : قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْيًا يُتْلَى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلّوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة [(١)] ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ [(٢)] » معناه تركهم الله استغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حَرَموه من قِراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وإن عاقبتم [(٣)] » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة . (٢) آية ٦ سورة التغابن . (٣) آية ١٢٦ سورة النحل .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : "خذوا عني مناسككم". وقال : "صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى". أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر فى كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، و إن السُّنة تفسّر هذا .

وروى الأوزاعىّ عن حسان بن عطيــة قال : كان الوحى ينزل على رســول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعىّ عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعىّ قال قال يحيى بن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمــد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذى روى أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجْسُر على هذا أن أقوله، ولكنى أقول : إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّانى فى كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَىّ : أن رسول الله صلى الله عليه وســلم كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيهـا من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبــد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمىّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفى موطإ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[١] « أسمـاء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نَحَر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبـارىّ : حدّثنى محمـد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيـد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمـرو عن زياد بن مِخْراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإن من بَعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمـد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حمـاد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول: ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نَحَر جزورا شكرًا لله، وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا ، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومَعْمر، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول: من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم و إن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبا
هو الكتاب العزيز ٱلله يحفظه * وبعد ذلك علم فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا ٱنتهاء لها * فٱختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ٱبحث وٱنظر الكتبا
وٱتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
وٱقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلَنْ * مولاك ماتشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف فٱقرءوا ما تيَسّر منه"

روى مسلم عن أُبَىّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أَضاة[(١)] بنى غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته و إن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته و إن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته و إن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة): غدير صغير. وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إنى بُعثت إلى أمة أمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قطّ فقال لى يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطإ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتى ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول — وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقبِل وتعال وهلُمّ . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : استزده ؛ فقال : اقرأ على حرفين ؛ فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ؛ على نحو هَلُمّ وتعالَ وأقبِل واذهب وأسرع وعجّل . وروى ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبَىّ بن كعب أنه كان يقرأ «لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا»(1) : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنو أخّرونا ، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَىّ أنه كان يقرأ «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ»(2) : مَرّوا فيه ، سَعَوْا فيه . وفى البخارى ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولا حرام .

قال الطحاوى : إنما كانت السّعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ؛ ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسّع لهم

(1) آية ١٣ سورة الحديد . (2) آية ٢٠ سورة البقرة .

فى ٱختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفُّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها. قال ٱبن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ٱرتفعت تلك الضرورة فٱرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

روى أبو داود عن أُبَيّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أُبَيّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب". وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ٱبن مسعود نحوه. قال القاضى ٱبن الطيّب(1): وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَيّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا ٱسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف.

القول الثانى — قال قوم: هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها، يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هُذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن. قال الخطابى: على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله: «وَعَبَدَ الطّاغُوتَ»(2). وقوله: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ»(3) وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله. وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وٱختاره ٱبن عطية. قال أبو عبيد: وبعض الأحياء

(1) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضى أبو بكر الباقلانى.

(2) آية ٦٠ سورة المائدة. (3) آية ١٢ سورة يوسف.

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض، وذكر حديث ٱبن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما ٱختلفتم أنتم و زيد فٱكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهـم . ذكره البخارى وذكر حديث ٱبن عباس قال : نزل القرآن بلغــة الكَعْبَيْن ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيــل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ٱبن الطيب رضى الله عنــه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[1] ولم يقل قرشيًّا ؛ وهــذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن ٱسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ٱبن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغــة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ٱبن عطية : معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل بلغــة جملتها نزل القرآن ، فيعبّر عن المعنى فيــه مَرّة بعبارة قريش ، ومرة بعبـارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : ٱبتدأ [خلق الشىء وعمله][2] فجاءت فى القرآن فلم تتجه لٱبن عباس، حتى ٱختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتها، قال ٱبن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ» . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى « رَبَّنَـا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ »[3] حتى سمعت بنت ذِى يَزَن تقول لزوجها : تعالَ أُفاتِحْكَ، أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »[4] أى على تنقص لهم . وكذلك ٱتفق لقطبــة بن مالك إذ

(١) آية ٣ سورة الزخرف . (٢) زيادة عن ابن عطية . (٣) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٧ سورة النحل .

سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »[1] ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مُضَر، قاله قوم، وآحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مُضَر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لِكنانة ، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيْم ، ومنها لضَبّة، ومنها لقَيْس ؛ قالوا : هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان آبن مسعود يحبُّ أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كَشْكَشَة قَيْس وتَمْتَمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا »[2] : جعل رَبُّشِ تحتَشِ سريًّا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجِلّة ، وآحتجوا بقراءة آبن مسعود : لَيَسْجُنُنَّه عتى حين ؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذى الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنَّها غيرُ طائِلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الآختلاف فى القراءة فوجدتها سبعاً : منها ما تتغيّر حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأطْهَرَ، « ويَضِيقُ صَدْرِى » ويضيقَ . ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل: « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعَد . ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ؛ وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهنّ غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعـالى ، وهى أمْرٌ ونَهْىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ »(١) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام " أنزل القرآن على سبعة أحرف " القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدِى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما رَوى وعلِم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه، وعُرِف به ونُسب إليه، فقيل : حرف نافع، وحرف ابن كَثير، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(١) آية ١١ سورة الحج .

فى ذلك مصنفات، فآستمر الإجماع على الصواب، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما . قال آبن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلَّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه، وأما مايؤثر عن أبى السَّمَّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به. قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يُعمل بها على أنها منه، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة آبن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صَرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والإثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال آبن عطية : أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : " فآقرءوا ما تيسّر منه " بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مَرّة لأُبَىّ بما عارضه به جبريل، ومَرّة لآبن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة « الفرقان »، وقراءة

---

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) : هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا، والتصويب عن طبقات القراء .

هشام بن حكيم لها ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد اختلفا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مرّة بهذه ومرّة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشئة الليل هى أشدّ وطأً وأصوب قيلًا » فقيل له : إنما نقرأ « وأقوم قيلا » . فقال أنس : وأصوب قيلًا، وأقوم قيلًا وأهيأ، واحد؛ فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون »(١) . روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفرقان » على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبّبته(٢) بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرسله(٣) اقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " اقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هذا ، مارواه مسلم عن أُبَيّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلّى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأا، فحسّن النبيّ صلى الله عليه وسلم شأنهما؛ فسُقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ماقد غشينى ، ضرب فى صدرى ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقًا، فقال لى : "ياأُبَيّ أُرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمّتى فردّ إلىّ الثانية اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمّتى

(١) آية ٩ سورة الحجر . (٢) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته .

(٣) أرسل الشىء : أطلقه .

فردّ إلىّ الثالثة آقرأه على سبعة أحرف فلك بكل رَدّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت اللهمّ آغفر لأمتى اللهم آغفر لأمتى وأخّرت الثالثة ليوم يَرغبُ إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أُبَىّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيْرة ودهشة؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظُم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ وإلا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من آختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النَّسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولمّا رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره، فأعقب ذلك بأن آنشرح صدره وتنوّر باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق آستحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يَتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " ؟ قالوا : نعم ، قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكرِ جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ما سواها، وذِكرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقًا فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللِّخاف : حجارة بيض رِقاق، واحدتها لَخْفة . والظُّرَر : حجر له حدّ كحدّ السكين، والجمع ظِرار؛ مثل رُطَب ورِطاب ، ورُبَع ورِباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما آستحرّ[1] القتلُ

(١) قوله : آستحر ، أى آشتد وكثر .

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء ، كأبىّ وآبن مسعود وزيد؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك، بجمعه غير مرتب السُّوَر، بعد تعب شديد، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتــل قد آستحرّ يوم اليمامة بالناس ، و إنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، و إنى لأرى أن تجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صــلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صــدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف (١) والعسب (٢) وصــدور الرجال، حتى وجدت من ســورة « التوبة » آيتين مع خُزيمــة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيهــا القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن آبن غالب عن آبن شهاب وقال : مع أبى خزيمــة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمــة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُــلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْــهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال: حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى[1] — الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين — « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » . وقال الترمذى عنه : فقدت آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمع الأول ، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبرى : أن آية « براءة » سقطت فى الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؟ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ؟ على ما يأتى . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان واشتد الأمر فى ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه . وذلك أنهم اجتمعوا فى غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حذيفة المدينة — فيما ذكر البخارى والترمذى — دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبى خزيمة بالكنية (القسطلانى) .

هذه الغزوة، وجَمَعْتُ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما آختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة،لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن النـاس قد آختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك. وهـذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال:الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد آختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشـيين : إذا آختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسانـ قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سـوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، وآستصوبوا رأيه وكان رأيا سـديدا موفّقا؛ رحمة الله عليـه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إمامًا فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال آبن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولّاه رجل ،

والله لقد أسلمت وإنه لفى صُلب رجل كافر! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله آبن مسعود: ياأهل العراق، آكتموا المصاحف التى عندكم وغُلّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فآلقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة «آل عمران»(1) إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارىّ : ولم يكن الآختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله آبن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام ، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حىّ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والآختيار . ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نَتَجه الغضب ، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يُشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن آختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت : هذا فيه نظر ، وسيأتى . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد ــ أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) فى آية ١٦١ راجع جـ ٤ ص ٢٥٦

فلان بن فلان ؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَــل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال. قال آبن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التــابوت ، فقال زيد : التــابوه . وقال آبن الزبير وسعيد بن العاصى : التــابوت ؛ فرُفع آختلافهم إلى عثمان فقال : آكتبوه بالتــاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش. أخرجه البخارى والترمذى . قال آبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليــه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيــل سبعة، وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجّه بها إلى الآفاق، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فآتخذها قرّاء الأمصار معتمد آختياراتهم ، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الآختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم آعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال آبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله ! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ؛ فوالله ما حرقها إلا عن ملا منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا آجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة آبن الزبير كتب فقــه كانت عنــده يوم الحَرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

ذكر الله تعالى؛ وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان . وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أدّاه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه ردّ على الحُلولية[1] والحَشوِيّة القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كلّ ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما، وأن القديم ما لا أول لوجوده ، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا : نعم، فارقوا الدّين، و إن قالوا: لا، قيل لهم: فما قولكم في حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ و إن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبّهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق. وقال الله عزّ وجلّ : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

---

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حالّ في كل شيء وفي كل جزء منه متحد به حتى جوّزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضــة — قبحهم الله تعـالى — فى القــرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحـرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لمـا جاء بهما تذكّرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أوْلا ، فالآية إنمـا ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنمـا ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينـة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية « الأحزاب » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ٱبن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة ٱسمه وهو مشهور بكنيته ، وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أَصْرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ٱبن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا ٱجتماعهما فى الأنصـار ، أحدهما أَوْسِىّ والآخر خَزْرَجِىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلّم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبوالدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال](١) : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً ، وكان بَدْرِيًّا، وآسم أبى زيد سـعد بن عُبيد . قال آبن الطّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثارعلى أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقـد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارىّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غيرأربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غيرتلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه و بعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضي، عبدَ الله بن مسعود وسالمـا مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن. روى جرير عن عبـد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من هذا الذى يقرأ القرآن" . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد؛ فقال : "إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل" الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : "غضًّا كما أنزل" أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع و جماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة آبنِ أُمّ عَبْـد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليـه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من ٱبن أمّ عبد — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب وسالم مَوْلى أبى حُذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »(١) . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ؛ فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى إبراهيم بن موسى الخُوزى(٢) حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ؛ قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ؛ فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوّذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ؛ فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

---

(١) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى التهذيب وغيره : آبن يزيد .

قلت : قوله عليه السلام " خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد " يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كلٌّ منهم عزا قراءته التي اختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى عليّ وابن مسعود ، وأسند ابن كثير قراءته الى أُبَيّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَيّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابي .

باب ما جاء في ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطّيب : إن قال قائل قد اختلف السلف في ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكيّ على المدنيّ ، ومنهم من جعل في أول مصحفه الحمد، ومنهم من جعل في أوله : « اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » ، وهذا أول مصحف عليّ رضى الله عنه . وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله : «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ثم البقرة ثم النساء؛ على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَيّ كان أوله : الحمد لله، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة؛ ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضي أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكيّ رحمه الله في تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات في السوّر ووضع البسملة في الأوائل هو من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولمّا لم يأمر بذلك في أول سورة « براءة » تُركت بلا بسملة؛ هذا أصح ما قيل في ذلك ، وسيأتي [(١)] .

وذكر ابن وهب في جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

ربيعة : قد قُدِّمنا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألَّفه ، وقد آجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننتهى إليه ، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال آبن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلّفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالا ؛ آختارهم الله لصحبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم و إقامة دينه ، فآعرفوا لهم فضلهم ، وآتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من آختلاف مصحف أُبَىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن آبن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، و يوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فآتساق السور كآتساق الآيات والحروف ، فكلُّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العالمين ؛ فمن أخر سورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : اخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ »[1] . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن آبن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُم

(١) آخر سورة « النساء » .

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما السلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه،وأنه لا يحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عَنيَا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه فى القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده — تعنى بالمدينة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السُّوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

ويأيها النبيّ لم تُحَرّم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّـوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطرّ إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسـد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسـلّم ما حكاه عن ربه تعـالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقـدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هـذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهـمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَهـا الخطـوبُ
عينـاكَ دَمْعُهـما سَرُوبُ * كأنّ شأنَيْهما شَـعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا، فقـدّم المؤخر وأخر المقدّم؛ ومعنى سَروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشـاعر(١) :

* أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهى مَوَاصِـلُ قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برى : رواه ابن دريد « سربت » بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه « سريت » بالياء باثنتين فمناه : كيف سريت ليلا، وأنت لا تسرين نهارا » .

(فصل) — وأما شَكْل المصحف ونَقْطه فرُوِى أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله ، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه ، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك ، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من آختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا ، إلى أن ألف آبن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزَّبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ؛ وذكر أيضا أن آبن سِيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال آبن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك ، وقيل : إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدّانِى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير فى المصحف ، وأنه كان يَحُكّه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان ، فكره ذلك وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر فى كل سورة ما فيها من آية ، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجَدّه ، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف ، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر ، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجرّدا فى المصاحف ، فأوّل ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النَّخَعِىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا ، فقال لى : آمحه فإن عبد الله بن مسعود قال : لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا ؟ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدانى رضى الله عنه : وهــذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشــير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمــرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك وآستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحــرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا . قال: فأخبرونى إلى أى حرف ينتهى نصف القرآن ؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال: فأخبرونى بأسباعه على الحروف؛ فإذا أوّل سبع فى النساء «فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ» فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التــاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَــةٍ » فى الهــاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل ســتة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العــدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذى رواه سُلَيم[1] والكسائى عن حمزة ، وأسنده الكسائى إلى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون . فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون؛ نقص آية . قال ٱبن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا ، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — فى قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها ، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتَذبذَبُ

أى منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُميت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) فى الأصول : «مسلم» والراوى عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفى وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القراء) .

عنده كُسور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُميت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هـذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لأنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر (١) :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لأنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وآنفصاله ، أى هى بائنــة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ (٢) » . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُهـا * لستة أعوام وذا العـامُ سابعُ

وقيل : سُميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرْج بن مُسْهِر الطائى :

خرجنا من النَّقْبَيْن لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقـاحَ المَطافلا

وقيل : سُميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وآختلف النحويون فى أصــل آية ؛ فقال سيبويه : أيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحركت الياء وآنفتح ما قبلها آنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعــدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثــل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وآنفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لألتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء (٣) .

وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهرُ من آيائه * غيرَ أثافيــهِ وأرْمِـــدائِه

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هنّ الحرائر لا ربات أحمرة *

(٢) آية ٢٤٨ سورة « البقرة » . (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : أياء جمع الجمع نادر .

وأما الكلمة فهي الصورة القائمة بجميع ما يختلط بهـا من الشُّبهات[١] أي الحروف، وأطول الكلم في كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحـو قوله تعـالى : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ »[٢] . و « أَنُلْزِمُكُمُوهَا »[٣] وشبههما ؛ فأما قوله : « فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ »[٤] فهو عشرة أحرف في الرسم[٥] وأحد عشر في اللفظ . وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله ، وما أشـبه ذلك . ومن حروف المعاني ما هو على كلمة واحدة ، مثل همزة الاستفهام وواو العطف ، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ » . «وَالضُّحَى» . «وَالْعَصْرِ» . وكذلك «الۤمۤ» . و«الۤمۤصۤ» . و«طه» . و«يٰسۤ» . و«حمۤ» في قول الكوفيين ، وذلك في فواتح السور، فأما في حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدّاني : ولا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله في الرّحمن : « مُدْهَامَّتَانِ»[٦] لا غير . وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك في قوله : « حمۤ عۤسۤقۤ» على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة في غير هـذا : الآية التامة ، والكلام القـائم بنفسه ، وإن كان أكثر أو أقل ، قال الله عزّ وجلّ : « وَتَمَّتْ[٧] كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا »قيل: إنما يعني بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ»[٨] إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ[٩] كَلِمَـةَ التَّقْوَى » . قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبيء صلّى الله عليه وسلّم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" . وقد تسمّي العرب القصيدة بأسرها ، والقصة كلها ، كلمـة فيقولون : قال قُسٌّ في كلمته كذا ، أي في خطبته ؛ وقال زُهير في كلمته كذا ، أي في قصيدته ؛ وقال فلان في كلمته يعني في رسالته ؛ فتسمى جمـلة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منهـا ، على عادتهم في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره ، وكان بسبب منه ، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة ، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز . قال أبو عمرو الداني : فإن قيـل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف ، وقد سبق التعبير به في ص ١٦ من هذا الجزء . (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى في الرسم فقط .
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة ؟ قلت: كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليـه ، ولا ينفرد وحده فى الصـورة ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهـذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصـلة كانفراد الكلم وٱنفصالها، فلذلك سُمِّيت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا: المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " أنزل القرآن على سـبعة أحرف " أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

وٱختلفوا هل وقع فيـه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القـاضى أبو بكر بن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيـه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنمـا ٱتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بهـا العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتهـا لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّـا مبينًا، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوّة . ونشأ : قام من الليل؛ ومنه «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ» و«يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ» أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة . والغَساق: البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان؛ بلغة الروم . والسِّجيل : الحجـارة والطين بلسان الفرس . والطُّور الجبل . واليَمّ: البحر بالسريانية . والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية .

قال ٱبن عطية : «لحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن ٱستعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهـذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

وكسفر عمر بن الخطـاب وكسفر عمرو بن العاصى وعمارة بن الوليـد إلى أرض الحبشــة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلِقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجميــة غيّرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربىّ الصحيح ، ووقع بهـا البيان ؛ وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن . فإن جهلها عربىٌّ مّا فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يَعرف آبن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال آبن عطية : « وما ذهب إليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين آتفقتا فى لفظة لفظةٍ فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر؛[1] لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأوّل أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دَخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بهـا أو لا ، فإن كان الأوّل فهى من كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هــذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هــذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب وردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها آستحال أن يخاطبهم الله بمـا لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسُمّيت معجزة لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن آختل منهـا شرط لا تكون معجــزة .

(١) فى الأصول : « والأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن آبن عطية .

فالشرط الأوّل من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنما وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجىء الرسل وآدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرّك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى آدّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفَلْق البحر، وآنشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثـانى هو أن تخرق العادة . وإنما وجب آشـتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما آدّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول : الدليل على صدقى أن يخرق الله تعـالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع المـاء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقـام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جمـاعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منـه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما آستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقـام قوله لو قال : صـدق فيما آدّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرّك الأرض عنـد قولى لهـا : تزلزلى ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب آشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هـذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فإن هـذا الكلام الذى خلقه الله تعـالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه. وكذلك ما يروى أن مُسَيْلِمة الكذاب لعنه الله تفـل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من المـاء ، فما فعل الله سبحانه من هـذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثـل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعـالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهـذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُـوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن آدّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فآعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال: إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسـلّم يظهر على يديه من الآيات العظام، والأمور الجسام، ماهو معروف مشهور؛ فإنا نقول: ذلك يدّعى الرسالة، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان مابين البصراء والعميان، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والمِلّة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات، تعالى ربّ البريّات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فآعلم أن المعجزات على ضربين : الأوّل — ما آشتهر نقله وآنقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، وآستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقا كثيرا وجَمّاً غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أوّلهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفاً عن سَلَف والسَّلَفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ، فنقَلَ القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه و يسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضرورىّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان ؛ كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة ، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فالقرآن معجزة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم الباقية بعده إلى يوم القيامة ، ومُعجزة كلّ نبيّ آنقرضت بآنقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منهـا : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لســان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء، وكذلك قال رب العزة الذى تولّى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذرّ قال لأبى ذرّ : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن ، ساحر؛ وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقْرَاء[1] الشعرفلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون. وكذلك أقرّ عُتْبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شـعر لمّـا قرأ عليه رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « حمٓ » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[2] ؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثـل القرآن قطّ كان فى هذا القول مُقرًّا بإعجاز القرآن له ولضُربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك فى سورة «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[3] إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[4] » إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ[5]» إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ[6] »، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ[7] » .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النَّظم، والأسلوب ، والجزالة، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية؛ و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدّى والتعجيز ، ومع هـذا فكل سورة تنفرد بهـذه الثلاثة ، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه و بحوره وأنحاؤه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٩٦

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سـورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغَيَّبَيْن : أحدهما — الإخبار عن الكَوْثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من أتباع سـائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عنـد نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١) » ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقـع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدّمت فى أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أُمّىّ ما كان يَتْلُو من قبله من كتاب ، ولا يَخُطّه بيمينه ؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السـلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجـاءهم — وهو أمّىّ من أُمة أُمّيّة ، ليس لهـا بذلك علم — بمـا عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا ممـا لا سبيل إليه إلا عن تعلّم ؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا متردّدا إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْى .

ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيّـد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (٢) » « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (٣) » «وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٤)» و «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (٥)» ، وشبه ذلك .

ومنهـا : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليهـا إلا بالوحى ؛ فمن ذلك :

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ »[1] الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجْح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »[2] وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ »[3] . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ »[4] وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »[5] . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا ربُّ العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمّنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[6] .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصَّرْفة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١ . (٦) راجع جـ ٥ ص ٢٩٠

على قولين : أحدهما — أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدِروا عليه .

قال ابن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنمـا هو بنظمه وصحةِ معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطتــه أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعــد المعنى ، ثم كذلك من أوّل القــرآن إلى آخره . والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بَشَرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهــذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتهـا أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسـلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قَطّ فى قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصــور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيهـا جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » (1) الآية . وكذلك فاتحة سورة المـائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليــلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعــد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك ممـا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرةِ الفوت ، والدارِ الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (2) الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأوّلين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعـالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(1) آية ٧ سورة القصص .   (2) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

مَنْ أَغْرَقْنَا» (١) . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة، واستقرار السفينة واستوائها، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا» إلى قوله : «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ؛ أنزل الله تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» (٢) . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ» (٣) . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القصار؛ فقال جلّ ذكره : «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» (٤) . فأُفحموا عن الجواب، وتقطّعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، وآثروا سَبْي الحريم والأولاد؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهونَ كثيرا، وأبلغَ فى الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن (٥) ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن (٦) .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتِي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم؛ إذا تأملتَ قولَه صلّى الله عليه وسلّم فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك فى قوله عليه السلام : "فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ» . وقوله : «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» . هــذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا، وأعذب لفظا، وأقل حروفا؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيــه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف؛ وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظِنــة المعارضة؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك): الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك): الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره، فكان السـحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا ٱلتفات لما وضعه الواضعون، وٱختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضـل سُوَر القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ٱرتكبها جماعة كثيرة، ٱختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ٱرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثـل : المغيرة بن سـعيد الكوفى، ومحمـد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وغيرهما، وضـعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقِعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله"، فزاد هذا الٱستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ٱبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دِين، فٱنظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هَوِينا أمْرًا صيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا، يدعون النـاس إلى فضائل الأعمال، كما رُوى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزِى ، ومحمد بن عكاشة الكِرمانى، وأحمـد بن عبد الله الجُوَيبارِى، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ٱبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت النـاس قد أعرضوا عن القرآن وٱشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أُبَىّ بن كعب عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى آنتهى إلى من آعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحدىّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤّال والمُكْدِين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعِين، فى مسجد الرُّصَافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ فى قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا آبن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قطّ فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا؛ فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وماعلمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق ؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمَام واللّهو به ؛ فأُهدى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِىّ[1]

(١) أبو البخترى : هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . آنتقل من المدينة إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفى سنة مائتين .

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح ، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحَمَام أن يذبح ؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فترك العلماء حديثه لذلك ، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء ، ورواها الأئمة الفقهاء ، لكان لهم فى ذلك غُنْية ، ونحرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب ، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا ، فتقبل الناس موضوعاتهم ، ثقة منهم بهم ، وركونا إليهم ، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّـنّة ، أن القرآن آسم لكلام الله تعـالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليـه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور ، مقـروءٌ بالألسنة ، مكتوبٌ فى المصاحف ؛ معلومةٌ على الأضطرار سُـوَرُه وآياته ، مُبرَّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه ، فقد أبطل الإجماع ، وبَهَت الناس ، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليـه ، وردّ قوله تعالى : « قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[1] » ، وأبطل آية رسوله

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٦

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولمَا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أُولِى الحَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف ، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» . فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادّعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

« أحد » وآدّعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وآدّعى أن المصحف الذى فى أيدينا آشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١)، فآدّعى أن الحكمة والعزة لايشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « و إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغيّ فى هذا وأشكاله حتى آدّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللّٰهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعــه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علِيّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط علىّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهــم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للنــاس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتــاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المــاضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها .

وآدّعى أن عثمان رضى الله عنه لمــا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أَوْلى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمّتى أُبَىّ بن كعب " ولقوله عليه السلام : " مَن سَرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة آبن أُمّ عَبْد " . وقال هــذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذيْن »(٢)، « فأصدق وأكون »، « و بشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما آتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَــذَانِ »(٣) بالألف ،

---

(١) آية ١١٨ سورة المـائدة . (٢) بتشديد النون، قراءة نافع .

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضعين . وكما خالف ٱبن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين (١) ، يفتح الثانية بعضهم ويسكنها بعضهم ، وفى المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إن ثمودَا كفروا ربّهم » بغير تنوين ، وإثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العذ فيما تقدّم مما ٱختلفت فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كَثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ٱبن عباس ، وٱبن عباس قرأ القرآن على أُبَىّ بن كعب « حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، فى رواية وقرأ أُبَىّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصّيانة ، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهد على ٱبن عباس ، وقرأ ٱبن عباس على أُبَىّ بن كعب ، وقرأ أُبَىّ على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أَبِى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُروَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَىّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ؛ وعن ٱبن عباس « ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصــلاة بها تحلّ ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب وإلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد: لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقــد طعن عليه فيه بعض أهل الزّيغ فأنكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بحُمْقِهم — جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقَوّله مالم يقل، وبدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من آختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، ويَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيــه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإســلام، وبثباته تقـام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجرًا ، وذكر عليّاً فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نَفْيٌ له وكُفر ، ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا رَبّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففى «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب ؛ فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوّله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأىّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفتر ومُبْطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تُؤمّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشا كل كلام البارئ تعالى ولا تخلط به ، ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها « لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون. فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ، لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ، ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حَرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون. والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصَّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البَلِيّة والنِّقمة ، والشراب محال أن

يؤكل. فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردًا لقوله، وخِزيا لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يُتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ»[(1)] إن شاء الله تعالى.

القول فى الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسألة:

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» وهو كثير.

الثانيــة — هــذا الأمر على النّدب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصــلاة. واختلفوا فيه فى الصلاة. حكى النّقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ابن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعى يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان.

الثالثــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(١) راجع ج ٢ ص ٦١

لفظ كتاب الله تعالى . ورُوِى عن آبن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "يآبن أُمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم" .

الرابعــة — روى أبو داود وآبن ماجه فى سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : "الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان مِن نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه" . قال عمرو: هَمْزُه المُؤْتَةُ، ونَفْثُه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْر . وقال آبن ماجه ، المُؤْتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل مِن فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : "سبحانك اللّهمّ و بحمدك تبارك آسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"، ثم يقرأ. وروى سليمان بن سالم عن آبن[2] القاسم رحمه الله أن الآستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال آبن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا فى هــذا من تبديل الصفة فى آسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد، ونحو هــذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامســـة — قال المَهْدَوِىّ : أجمع القرّاء على إظهار الآستعاذة فى أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السُّدّىّ[3] عن أهل المدينــة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن آبن ماجه جـ ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود جـ ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » . (٣) فى بعض النسخ : « المسيبى » .

القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم آبتـدأ من أوّله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســة — حكى الزّهراوىّ قال: نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الآستعاذة فى غير الصــلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبىّ صلى الله عليه وســلم وحده ، ثم تأسّــينا به .

السابعــة — رُوِى عن أبى هريرة أن الآســتعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ: «آنتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الآستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتهـا آمتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى آمتثالها أمرًا أو آجتنابها نهيًا ؛ وقد قيل : فائدتها آمتثال الأمر بالآستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ »(١) . قال آبن العربى: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٢) قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يَعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الآستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثامنــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : آستَبّ رجلان عند النبىّ صلّى الله عليه وســلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبىّ صلّى الله عليــه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(١) آية ٥٢ سورة الحج . (٢) آية ٩٨ سورة النحل .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب (١) فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أرضُ ربّى وربّك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر ما يَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . ورَوَتْ خَوْلة بنت حَكِيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذيّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاسعة — معنى الآستعاذة فى كلام العرب : الآستجارة والتحيّز إلى الشيء، على معنى الآمتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان وآستعذت به؛ أى لجأت إليه . وهو عياذى؛ أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك؛ أى أعوذ بالله منك؛ قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْرُ * عَــوْذٌ بربّى منكمُ وحُجُرْ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (٢) : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعًا، وهو آستعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أَعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لآستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقال له خنزب . فى نهاية آبن الأثير : «وقال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم» .

(٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

العاشرة — الشيطان واحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير . وشطنت داره أى بعدت، قال الشاعر[(١)] :

نأتْ بسعادَ عنك نَوًى شَطُونُ * فبانتْ والفــؤادُ بها رهينُ

و بئر شَطُون أى بعيدة القعر . والشَّطَن : الحبل ؛ سُمِّى به لبعد طرفيه وآمتداده . ووصف أعرابى فرسا [لايَخْفَى][(٢)] فقال : كأنه شيطان فى أشطان . وسُمِّىَ الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده، وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان، قال جرير :

أيامَ يدعونَنى الشيطانَ من غَزَلٍ * وهُنّ يَهْوَيْنَنى إذ كنتُ شيطانَا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك[(٣)]، فالنون زائدة . وشاط إذا آحترق . وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه . وآشتاط الرجل إذا آحتدّ غضبا . وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن . وآشتاط إذا هلك، قال الأعشى :

قد نَخضِب العَيْر من مكنون فائله[(٤)] * وقد يَشيط على أرماحِنا البَطَلُ

أى يهلك . ويردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا : تشيّط، ويردّ عليهم أيضا بيت أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

أيُّما شاطنٍ عَصَاه عَكَاه[(٥)] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» . وقول أبى إبراهيم : «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ»[(٦)] . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

---

(١) هو النابغة الذبيانى؛ كما فى لسان العرب مادّة (شطن) . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن) .
(٣) فى الأصول : «إذا بطل» والتصويب عن اللسان . (٤) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين . (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه . (٦) راجع جـ ١١ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ١٢١

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبــد الله قال قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك؛ قال : ما هذا جزائى منك؛ قلت : وما جزاؤك منى يا عدوّ الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه فى رَحِم أمّه .

البســـملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هــذا الذى وضعت لكم يا عبادى فى هذه السورة حق ، وإنى أفِى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرّى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » ممــا أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعــد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ؛ وهــذا صحيح .

الثانيـــة — قال سعيد بن أبى سكينة : بلغنى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقــال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيــه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هــذا المعنى قصة بِشْر الحافِى ، فإنه لمــا رفع الرقعة التى فيها ٱسم الله وطيبها طُيّب ٱسمه[(١)] ، ذكره القشيرى . وروى النسائى عن أبى المليح عن ردف رســول الله

(١) نص القصــة كما فى وفيات الأعيان والرسالة القشــيرية : « ... وسبب توبتــه أنه أصاب فى الطريق ورقة مكتوبا فيها ٱسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها وٱشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها فى شق حائط ، فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر ، طيبت ٱسمى لأطيبنك فى الدنيا والآخرة . فلمــا ٱنتبه من نومه تاب .

صلى الله عليــه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : "إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوّته صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال عليّ بن الحسين فى تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »[1] قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبــد الله ٱبن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هى قوّتهم، و ببسم الله ٱستضلعوا . قال ٱبن عطية : ونظير هذا قولهم فى ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين ٱبتدروا قول القائل: ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا؛ فلذلك قال النبى صلّى الله عليه وسلّم: "لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيهم يكتبها أوّل" . قال ٱبن عطية : وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثــة — روى الشعبي والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بٱسمك اللّهمّ » حتى أُمِر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَٰنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمــا نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة: إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعــة — رُوِى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السُّوَر .

قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها. وقد ٱختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها؛ وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة؛ وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة ؛ وتردّد قوله في سائر السُّوَر ؛ فمرّة قال : هي آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

واحتج الشافعي بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ (١) من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق ؛ وكان سفيان الثوريّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت عليّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر (٢) إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال ابن العربي : « ويكفيك أنها

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا في الأصول والتصويب عن سنن الدارقطني وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفي . راجع تهذيب التهذيب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

ليست من القرآن آختــلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا فى النمل وحدها. روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول‌الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين» قال الله تعالى حَمِدنى عبدى و إذا قال العبد « الرحمنِ الرحيم » قال الله تعالى أثنى علىّ عبدى و إذا قال العبد « مالكِ يومِ الدينِ » قال مجّدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلى عبدى — فإذا قال «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» قال هذا بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال «آهدِنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين أنعمت عليهم غير آلمغضوبِ عليهم ولا آلضالين » قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل" . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ فجعل الثلاث الآيات الأوَل لنفسه ، وآختص بها تبارك آسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الأستعانة منــه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعـالى ، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . وممـا يدل على أنها ثلاث قوله :"هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهِم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهـذه القسمة التى قسمها الله تعالى وبقوله عليـه السلام لأُبَىّ : "كيف تقرأ إذا آفتتحت الصـلاة " قال : فقرأت « الحمــد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها — أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية ، وكذا روى قتادة عن أبى نَضْرة عن أبى هريرة قال: الآية السادسـة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهـم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فإنها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت فى النمل ، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح ؛ ولكن لكونها قرآنا ، أولكونها فاصلة بين السور

— كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف آنقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أو تبرُّكًا بها ، كما قد آتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى (١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن إلا فى «طسٓ» «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والآستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد آضطرب قول الشافعى فيها فى أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولّى الدّارَقُطْنِيّ جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة آنقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » آتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا آستحبّوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السّعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عنـد أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أوّل السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أوّل أم القرآن . وروى عنـه ٱبن نافع ٱبتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ٱبن عمر ، وٱبن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمـد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة ٱجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة ؛ منهم : أبو حنيفة والثّوْرى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وٱبن مسعود وعمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد ؛ وبه قال أحمد ٱبن حنبل وأبو عبيـد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الاستذكار) . وٱحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق (١) عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقـد رُوى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مُسَيْلِمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هـذا على

(١) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقى الرَّمَل فى الطواف وإن زالت العـلة ، وبقيت المخافتة فى صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادســة ـ اتفقت الأمة على جواز كَتْبها فى أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شـعر فروَى مُجالد عن الشَّعْبى قال : أجمعـوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحـيم » . وقال الزهرى : مضت السُّنّة ألا يكتبوا فى الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب إلى رسم التسمية فى أوّل كتب الشعر سعيد بن جُبير ، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذى نختاره ونستحبه .

السابعــة ـ قال المـاوردى ويقال لمن قال بسم الله : مُبَسْمِل ، وهى لغـة مُوَلَّدة ، وقد جاءت فى الشعر؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

لقـد بَسْملتْ ليـلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغـة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَـرِّز والثعالبى وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة؛ أى من قول بسم الله . ومثله حَوْقَلَ الرجل، إذا قال : لا حَوْلَ ولا قوّة إلا بالله . وهَلَّلَ ، إذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل ، إذا قال : حىّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطَبْقَل، إذ قال: أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عِزّك . وحَيْفَل، إذا قال : حىّ على الفلاح . ولم يذكر المُطَرِّز : الحَيْصَلة، إذا قال : حىّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطبقل ، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك .

الثامنــة ـ ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر؛ والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخمّر[1] إناءك وآذكر آسم الله وأوْكِ سقاءك وآذكر آسم الله " . وقال : " لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا " . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكلْ مما يَليكَ" وقال : " إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر آسم الله عليه" وقال : " من لم يذبح فليذبح بآسم الله " . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجَعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله " . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سَمّى الله تعالى، ثم يُفرغ المـاء على يديه .

التاســـعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَرِيّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله » ، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهـذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشـــرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن «آسم» صلة زائدة، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم السـلام عليكما * ومَن يَبْك حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

(١) التخمير : التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشدّ به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدّوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هذا على أن الآسم هو المسمّى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه،هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأوّل للفرّاء ، والثانى للزجاج . فـ « بآسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ فـ « بسم الله » فى موضع رفع خبر الآبتداء. وقيل: الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان «بسم الله» فى موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فـ « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فـ « بآسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الآستعمال ؛ بخلاف قوله : « آقْرَأْ بِآسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الآستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الآستعمال إنما كَثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسمًا ؛ نحو الكاف فى قول الشاعر [١] :

* ورُحْنَا بِكَابْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسـطَنا *

أى بمثل آبن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه افْعٌ ، والذاهب منه الواو ، لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَىّ . وآختلِف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : إِسم بالكسر ، وأُسم بالضم . قال أحمد بن يحيى : مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

واللهُ أسمـاك سُمًـا مباركـا * آثــرك الله بـــه إيثارَكـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقــدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكًا [٢] لكل عظم يَلْحَمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سُمه » بالضم والكسر جميعا . ومنه قول الآخر :

* بآسم الذى فى كل سورة سِمُه *

وسكنت السين من « بآسم » آعتلالًا [٣] على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ، كقول الأَحْوَص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذْم مالكٍ * ولا مَن تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا [٤]

---

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء ، ملحّ . ويلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت البـاء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب في النسب إلى الآسم : سِمْوِيّ ، وإن شئت آسْمِيّ ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء ، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — آختلفوا في آشتقاق الآسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة ، فقيل : آسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الآسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سُمِّيَ الآسم آسما لأنه علا بقوّته على قسمي الكلام : الحرف والفعل ؛ والآسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل ؛ فلِعُلُوّه عليهما سمي آسما ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهي العلامة ؛ لأن الآسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل آسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح ؛ لأنه يقال في التصغير سمي وفي الجمع أسماء ؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة — فإن من قال الآسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته ؛ وهذا قول أهل السّنة . ومن قال الآسم مشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا آسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفاتٍ ، فإذا أفناهم بقي بلا آسم ولا صفة ؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة ، وهو أعظم في الخطإ من قولهم : إنّ كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام في الآسم والمُسَمَّى وهي :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطّيب — إلى أن الآسم هو المسمى ، وآرتضاه آبن فُورَك ؛ وهو قول أبي عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم ؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالآسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق ؛ فالخالق هو الرب ، وهو بعينه الآسم . فالآسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

قال آبن الحصـار : مَن ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسـميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الآسم غير المسمّى ، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسـيأتى لهذه مزيد بيان فى « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الآسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه آسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره ، ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ، وهو أحد تأويلى قوله تعالى : « هَلْ تَعْـلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمه الذى هو « الله » . فالله آسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلٰهيّـة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إلٰه إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ، والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — وآختلفوا فى هذا الآسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأوّل كثير من أهل العلم . وآختلفوا فى آشتقاقه وأصله ، فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فِعال ، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مِثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ آبنُ عَمِّكَ لا أفضلتَ فى حسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانِى فتخـزونِى

كذا الرواية : فتخزونى ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى « بسم الله » بسم الإلٰه ، فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لامًا مشدّدة ، كما قال عزّ وجلّ : «لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ، والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وآمرأة والهة ووَالِهٌ ، وماء موله[1] : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفِكَر فى معرفته . فعلى هــذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، و إسادة ووسادة؛ ورُوى عن الخليل. ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمّيَ « الله » إلهاً، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهُون إليه (بنصب اللام) ويألِهُون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الآرتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاهًا، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت. وقيــل : هو مشتق من ألَه الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَ إِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة؛ فإن آبن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فآسم الله مشتق من هــذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنــه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الآستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالِكُها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليــه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضّــل وغيرهم ، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هــذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه؛ كقولك : يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا آلرحمن ولا يا آلرحيم ، كما تقــول : يا الله ، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — وآختلفوا أيضا فى آشتقاق آسمه الرحمن؛ فقال بعضهم: لا آشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لآتصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رَحْمٰن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ» الآية. ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال سُهيل بن عمرو : أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم» !ولكن آكتب ما نعرف: بآسمك اللّهُمّ ، الحديث . قال آبن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، وآستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ قال آبن الحصّار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » . وذهب الجمهور من الناس إلى أن « الرحمن » مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثَنّى ولا يجمع كما يُثَنّى « الرحيم » ويُجمع .

قال آبن الحصار : ومما يدل على الآشتقاق ما خَرّجه الترمذى وصَحّحه عن عبد الرحمن آبن عَوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرِّحم وشققت لها آسمًا من آسمى فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته" . وهذا نص فى الآشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله و بما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر آبن الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له : أن « الرحمن » آسم عبرانىّ فجاء معه بـ « الرحيم » . وأُنشد[1] :

لن تُدركوا المجدَ أو تَشروا عباءَكُم * بالخَزّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا
أو تتركونَ إلى القَسَّيْنِ هجْرَتَكم[2] * ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : « الرحيم » عربىّ و « الرحمان » عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبوالعباس : النعت قد يقع للمدح ؛ كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مُطَرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ: «بسم الله الرحمن الرحيم»قال : مدح نفسه. قال أبو إسحاق:

(١) قائله جرير . والينبوت : ضرب من الشجر . (٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة « رحم » .

وهذا قولٌ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضُّلٌ بعد تفضل ، و إنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — وآختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ؛ كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للمتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس (١) :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطوفٌ عليك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصُّ الآسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الآسم خاصُّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : «الرحمن» آسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ؛ كما قال تعالى : « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » . وقال العرزمىّ (٢) : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعَم العامة ، و «الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال آبن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و «الرحيم» إذا لم يُسأل غَضِب . ورَوى آبن ماجه فى سُنَنه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذىّ . وقال آبن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ وهو خُوزِىّ (٣) ولا أعرف آسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقيل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك آبن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة . (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

الله يَغْضب إن تركتَ سؤاله ٭ وبُنَيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال آبن عباس : هما آسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابيّ : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لها فى شيء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البَجَلى: هذا وَهَم من الراوى، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شيء، وإنما هما آسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله عز وجل؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله رفيق يُحب الرفق ويُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنْف" .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ »(١) فعادل الآسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ »(٢) فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة، ولم يتسمّ به حتى قَرع مسامعه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعالى نَعْت الكذاب لذلك ، وإن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلِمة عَلَمًا يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى آسمه الرحمن : إنه آسم الله الأعظم ؛ ذكره آبن العربيّ .

السادسة والعشرون — «الرحيم» صفة مطلقة للمخلوقين، ولما فى «الرحمن» من العموم قدّم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن، فـ«الرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم ؛ أى وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إليّ ، أى بآتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء جـ ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف جـ ١٦ ص ٩٥

السابعة والعشرون — رُوى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلِّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمَّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة" . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شىء قدير فلا شىء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير ، والسين مفتاح آسمه سميع ، والميم مفتاح آسمه مليك ، والألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمه لطيف ، والهاء مفتاح آسمه هادى ، والراء مفتاح آسمه رازق ، والحاء مفتاح آسمه حليم ، والنون مفتاح آسمه نور ؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شىء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله» ؛ فرُوِىَ عن أم سَلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . الحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة . وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ آلحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض وبوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف ؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية : ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى : « الٓمٓ آللهُ » .

تفسير سورة الفاتحة

" بحـول الله وكرمه "

وفيها أربعـــة أبـــواب :

البـاب الأوّل ـ في فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذيّ عن أُبَيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة[1] بيني وبين عبدي ولعبـدي ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبـد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سـعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسـلم نادى أُبَيّ بن كعب وهو يصلّي؛ فذكر الحـديث . قال ٱبن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على ٱسم وهو معدود في أهل المدينة، روايته عن أبي هريرة وحديثه هـذا مرسل؛ وقـد روى هذا الحديث عن أبي سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على ٱسمه أيضا ؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال في التمهيد: «لا يوقف له على ٱسم» . وذكر في كتاب الصحابة الاختلاف في ٱسمه . والحـديث خرّجه البخاري عن أبي سـعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إني كنت أصلي؛ فقال : " ألم يقل الله « ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ[2] » " — ثم قال : — " إنّي لأعلمنّك سورة هي أعظم السُّوَر في القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدي، فلمـا أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هي السبع المثـاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه". قال ٱبن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أي وقال الله هي مقسومة .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٩

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، وآسمه رافع، و يقال : الحارث بن نُفيع بن المعلى، و يقال : أوْس بن المعلى، و يقال : أبو سعيد بن أوس بن المعلى ؛ تُوُفّىَ سنة أربع وسبعين وهو آبن أربع وستين [سنة](١)، وهو أوّل من صلّى إلى القِبْلة حين حُوّلت، وسيأتى(٢). وقد أسند حديثَ أُبَىّ يزيدُ بن زُرَيع قال : حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَىّ وهو يصلى؛ فذكر الحديث بمعناه .

وذكر آبن الأنبارى فى كتاب الردّ له : حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيبان عن منصور عن مجاهد قال : إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات : حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة .

الثانيــة — آختلف العلماء فى تفضيل بعض السُّوَر والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض ؛ فقال قوم : لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها . ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتىّ، وجماعة من الفقهاء . ورُوى معناه عن مالك . قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها . وقال عن مالك فى قول الله تعالى : « نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » قال : محكمة مكان منسوخة . وروى آبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . وآحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول، والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البُستىّ : ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يُعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال آبن حجر فى الإصابة : «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك» . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٩

ما يُعطى لقـارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم سـورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضـل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلًا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهَوَيْه(١) وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو آختيار القاضى أبى بكر بن العـربى وآبن الحصار، لحديث أبى سـعيد بن المُعَلَّى وحديث أُبَىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يا أُبَىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال : "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال آبن الحصار : عجبي ممن يذكر الآختلاف مع هذه النصوص .

وقال آبن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها، لأن هـذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل، كقولك : زيد أفضل العلمـاء، فهو أفضل النـاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمـل بثوابها، وبهـذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه آبن خلكان فقال: « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعـدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا . زاهويه، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأُبَىّ . " أىّ آية فى القرآن أعظم " قال : «اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ» . وإنما كانت أعظمَ آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلتـه أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له " أفضلَ الذكر؛ لأنها كلمات حوت جميع العلوم فى التوحيد، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن و بين الله حجاب " . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها، وهى آثنا عشر آسما :

(الأول) الصلاة(١)، قال الله تعالى(٢) : " قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين " الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد، لأن فيها ذكر الحمد؛ كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء؛ وسُمِّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطًّا، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفى هذا الآسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وآبن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وآبن سيرين : أم الكتاب آسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ» .

(١) فى تفسير الألوسى وغيره : سورة الصلاة . (٢) أى فى الحديث القدسى .

(الخامس) أم القرآن، وآختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وآبن سيرين؛ والأحاديث الثابتـة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسُمِّيت أم الكتاب لأنه يُبتـدأ بكتابتها فى المصاحف، ويُبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمر : أُمّ القُرَى : مكة ، وأُمّ خُراسان : مَرْوُ ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمّيت أم القرآن لأنهـا أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت، ومنه سُمّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل، والأرض أمّا، فى قول امَيّة بن أبى الصّلْت :

فالأرض مَعْقلُنا وكانت أمّنا * فيهـا مقـابرنا وفيهـا نولد

ويقال لراية الحـرب : أمّ، لتقدمها وآتباع الجيش لهـا . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : «وَأُمَّهَاتُكُمْ» . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظّلاَمَ بأُمّاتِكا *

وقيل : إن أمّهات فى الناس، وأُمّات فى البهائم؛ حكاه آبن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنهـا تُثنّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها آستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنهـا تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والآعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الآبتهال إليـه فى الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارمىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم"[1] .

---

(١) الذى فى مسند الدارمى عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء".

(التاسع) الرُّقْيَة، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى رَقَى سَيِّد الحيّ: "ما أدراك أنها رُقْيَة" فقال: يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي؛ الحديث. خرّجه الأئمة، وسيأتي بتمامه.

(العاشر) الأساس، شكا رجل إلى الشعبيّ وجع الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا[1]، وهى السماء السابعة؛ وأساس الأرض عجيبا، وهى الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهى سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بنى إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى[2].

(الحادى عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تتنصّف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة، ونصفها الآخر فى ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يجز.

(الثانى عشر) الكافية، قال يحيى بن أبى كثير: لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها. يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندرانى قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا".

الخامسة — قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». وقيل: السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره: "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل: أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدّم والله أعلم.

---

(١) وفى بعض الأصول: غربيا (بالغين المعجمة).

(٢) كذا فى نسخ الأصل. ولو كان جوابا للأمر لكان «تشف» مجزوما.

السادســـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ٱبن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، وٱختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلِجُوا المسجدَ وٱدعـوا ربَّكم * وٱدرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر» (١) إن شاء الله تعالى .

السابعــة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتهـا على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى – فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل «إياك نعبد» آية، وهى على عدّه ثمانى آيات ؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبـارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان ٱبن الأشعث حدّثنا ٱبن أبى قُدامة حدّثنا جَرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها ، فقال : آختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — آختلفوا أهى مَكيّة أم مَدَنيّــة ؟ . فقال آبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — وآسمه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيــة . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينــة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْرُ مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكْم ، لا عن الأبتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن ؛ فقيل : المدّثر ، وقيل : آقرأ ، وقيل : الفاتحة . وذكر البَيْهَقى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة ، وتَصِل الرَّحِم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : ياعَتِيق ، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : آنطلق بنا إلى وَرَقة ، فقال : " ومن أخبرك " . قال : خديجة ، فآنطلقا إليه فقصا عليه ، فقال : " إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فآثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه : يا محمد ، قل « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين —

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له؛ فقال له ورَقَة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بَشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبيّ مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركني ذلك لأجاهدنّ معك . فلما تُوُفّيَ ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِيّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هــذا الحديث ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولهـا بعد ما نزل عليـه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » و « يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ» .

الثالثـــة — قال ابن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد؛ لمـا رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم سمع نَقيضا(١) من فوقه ، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤتَهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ابن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هــذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها ؛ والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشيء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بهـا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ » وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين؛ حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى . فإنه جمع بين القرآن والسُّنة ، ولله الحمد والمِنّـــة .

---

(١) النقيض : الصوت .

الرابعة — قد تقدّم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلّى إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً ، لحديث عائشة وأنس المتقدّمَين وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا ٱفتتحا الصلاة : سبحانك اللّهُمّ و بحمدك ، تبارك ٱسمك، وتعالى جَدّك ، ولا إله غيرك . و به قال سفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ٱفتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وَجّهت وجهِى " الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله (١) .

قال ٱبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول : " اللّهُمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نقِّنِى من خطاياى كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدَّنَس اللّهمّ ٱغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبَرَد " وٱستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فٱغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعيّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — وٱختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . وٱختلف قوله فيمن تركها ناسيًا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية؛ فقال مرة: يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ٱبن عبد الحكم وغيره عن مالك. قال ٱبن خويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة و يسجد للسهو بعد السلام. قال ٱبن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة و يأتى بركعة بدلًا منها. كن

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٣

أسـقط سجدةً سهوًا . وهو آختيار آبن القـاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبـد الرحمن المخزومى المـدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصـلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صـلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليـه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن". وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صـلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعـة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صـلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه؛ على آختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوّغ الاجتهاد فى مقدار آيةٍ ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصـلى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعيِّنات فى العبادات .

السادســـة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعاً فالإمام يحمل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعاً أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسألة :

السابعـــة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صـلاة السِّر ؛ فإن فعل فقد أساء ؛ ولا شيء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسألة :

الثامنـــة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك ؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالى أنازع القرآن" ، وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" ، وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموما ، جَهَر إمامُه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جَهَر ؛ كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفي بقراءة الإمام . حكاه ٱبن المنذر . وقال ٱبن وهب وأشهب وٱبن عبد الحكم وٱبن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جَهَر إمامه أو أسرّ ؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عامّ، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله : "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختياني وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْري وعثمان ابن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ٱبن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُنَنه ما يرفع الخلاف و يزيل كل ٱحتمال فقال: حدّثنا أبو كُريب حدّثنا محمد بن فضيل،ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

حدثنا علىّ بن مُسْهِر جميعاً عن أبى سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صــلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وســورة فى فريضــة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليــه السلام قال للذى علمــه الصلاة : "وٱفعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبــادة بن الصامت عن صــلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصــلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلمـا ٱنصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فالتبستْ عليــه ؛ فلما ٱنصرف أقبــل علينا بوجهه فقال : "هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة" ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : "فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأمّ القرآن" . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس وٱبن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِىّ وقال : هــذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثِقات؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليــاء[1]، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن فى بيت المَقْــدِس . وقال أبو محمد عبــد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخــه ولا ٱبن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومســلم شيئا . وقال فيــه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام، فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرتُ . قال الدار قطنىّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبــد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإمام ضامن فما صنع فآصنعوا " . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم آستدل بقوله تعالى[1] : " قسمت الصلاة بيني و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين " الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : " و إذا قرأ فأنصتوا " أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعريّ ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة " و إذا قرأ فأنصتوا " قال الدارقطنيّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبى عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِيّ بن أبى عمارة . قال الدَّارَقُطْنِيّ : فإجماعهم يدل على وَهَمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقويّ ، تركه القطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال : هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحّح حديثَ أبى هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيِّب . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : " مالى أنازع القرآن " فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثى ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

---

(١) أى فى الحديث القدسى .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّيَ سنة إحدى ومائة وهو آبن تسع وسبعين سنة ، لم يَرْوِعنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد ، وهو ثقة ، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره . والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج، آقرءوا فى أنفسكم . يُبَيِّنه حديثُ عبادةَ وفُتْيَا الفـاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين. فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالى أنازع القرآن" لمـا أفتى بخلافه، وقول الزهرى فى حديث آبن أُكَيمة : فآنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بالحمد على ما بينا، وبالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة(١) وهو ضعيف، كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر. أخرجه الدارقطنيّ وقال : رواه سفيان الثورى وشعبة و إسرائيل آبن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة و جَرير بن عبد الحميد وغيرهم ، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيهـا بأمّ القرآن فـلم يصل إلا وراء الإمام، فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه . قال آبن عبد البر : ورواه يحيى آبن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وصـوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّا . وفيـه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن، وهو يشهد لصحة ما ذهب إليـه آبن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتـدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة، وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

---

(١) قـد ترجمه آبن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن آبن سـعد فى الطبقات قد وصفه بذلك .

الحادية عشرة — قال ابن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس في هذا الأصل هل يُحمل هذا النفي على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفَتْوى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر في هذا الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة في صلاته بطلت . ثم نظرنا في تكرارها في كل ركعة ؛ فمن تأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " افعل ذلك في صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه في هذا الباب من الأحاديث والمعاني في تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم في أن الفاتحة لا تتعيّن، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء . وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده في قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابي : " اقرأ ما تيسّر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد في رواية — فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هي خِداج — ثلاثا — غير تمام " أي غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ، إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب في النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومَن خرج من صلاته وهي لم تتم فعليه إعادتها كما أُمِر ، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب في شيء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة مَن يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأَخَرَةٍ[1] ، وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنــه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعِىّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّــام من عمر؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمــر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هــذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر ممــا جاء عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم . قال مالك : وســنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأولَيَيْن بأم القرآن وسورة، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعىّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثَّورِىّ : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبّح فى الأخريين إن شاء ، وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير .

صلاته، وهو قول أبى حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: اقرأ فى الأُولَيَيْن وسبح فى الأخريين، وبه قال النَّخَعِىّ . قال سفيان: فإن لم يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسى أن يقرأ فى ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثَور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فى كل ركعة ، كقول الشافعى المصرى ، وعليه جماعة أصحاب الشافعى . وكذلك قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكى ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا فى كل ركعة، وهذا هو الصحيح فى المسألة . روى مسلم عن أبى قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى بنا فيقرأ فى الظهر والعصر فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطوّل فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : ويقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونصّ فى تعيُّن الفاتحة فى كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك، والحُجّة فى السُّنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبىّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منّا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأمّ القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفى البخارى : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْرى وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها من القرآن؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حَدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شىء من القرآن معها؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عُبادة وأبى سعيد الخدرى وغيرهما . وفى المُدَوّنة : وكيع عن الأعمش عن خَيْثمة قال: حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها . واختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علِق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أسَرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال : جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمنى ما يجزئنى منه؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوّة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فمالى ؟ قال : "قل اللّهُمّ ٱرحمنى وعافنى وٱهدنى وٱرزقنى".

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجميين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور. وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ٱبن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من ٱفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلِقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ٱبن سحنون .

الباب الثالث ـ فى التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى ـ ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية ـ ثبت فى الأمّهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة ، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ" .

الثالثة ـ روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المَقْرَائىّ قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرىّ وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : "بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم". وقال وهب بن مُنَبّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر "لقّننى جبريل آمين عند

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : " آمين خاتم رب العالمين ". قال الهَرَوِىّ قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبلايا ؛ فكان كخاتَم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : " آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللّهُمّ آستجب لنا ؛ وُضِع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله ؛ رُوى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبي عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوّة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا .

الخامســـة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين. قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تَسْلُبَنّى حبّها أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفينِ آمينـا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعـدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ؛ مِن أمّ إذا قصد ، أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

البَيْتَ الحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِي . قال الجوهري : وهو مبنيٌّ على الفتح مثل أين وكيف؛ لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — آختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعي ومالك في رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون و بعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبري؛ و به قال آبن حبيب من علمائنا . وقال آبن بكير : هو مخيّر . و روى آبن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين و إنما يقول ذلك مَن خلفه؛ وهو قول آبن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم لْيَؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا و إذا قال غير آلمغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَيٍّ عن أبي هريرة؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حُجْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذي بعده » . وترجم البخاري « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : «آمين» دعاء، أمّن آبنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة (١). قال الترمذي : و به يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعدهم ، يَرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . و به يقول الشافعي وأحمد و إسحاق . وفي المُوَطّأ والصحيحين قال آبن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ آلمغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذي يقال فيه آمين؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا، ولا يتقدّموه بقول : آمين؛

(١) اللجة : الصوت

لما ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا " . وقال ٱبن نافع فى كتاب ٱبن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ٱبن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين.

السابعـــة ــ قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوى فى تأويل قوله تعالى : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعيَيْن .

الجـواب : أنّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعارٍ ظاهر ، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه ؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة ــ كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رَزِين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتى ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك ٱسمه عندما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قد أُجيبتْ دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربّنا ، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صيّر ذلك منه دَعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ٱبن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ماحسدتكم اليهود على شيء ماحسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين". قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم: إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع — فيما تضمّنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى — قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما مِن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أَخذ". وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى: «وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ][2] خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا». وقيل فى بعض الروايات: لكان ما أَعطى أكثر مما أَخذ. فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله؛ فهذا

---

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها.

(٢) زيادة عن نوادر الأصول.

في التدبير[(١)] . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله، وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ؛ أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارَب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعَضَلَتْ بالمَلَكَيْن فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبَّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارَبّ إنه قد قال يارَبّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر: اشتد واستغلق ؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد) : الشدائد . وعضّلت المرأة والشاة : إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون : أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلَت الملكين بغير باء . والله أعلم . ورُوى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيــة ــ اختلف العلماء أيّما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . واختار هذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون مِن قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى التذكير » .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لآستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمودِ الثّناءِ خَصَصْتُه * بأفضلِ أقوالى وأفضلِ أحْمُدِى

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد . والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّدِ *

وبذلك سُمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر (١) :

فَشَقّ له مِن آسمه لِيُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة : خلاف المذمّة . وأَحْمَدَ الرجلُ : صار أمره إلى الحمد . وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أى صادفته محمودا موافقًا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه . ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمىّ فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وآبن عطاء . قال آبن عطاء : معناه الشكر لله؛ إذ كان منه الآمتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . وآستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال آبن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

والقلب، والحمد إنمـا يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعمّ ، لأن فيـه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعمّ من الشكر، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضـع الشكر موضع الحمد .

ورُوى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، وإن آدم عليـه السلام قال حين عَطَس : الحمـد لله . وقال الله لنوح عليـه السلام : « فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »(١) وقال إبراهيم عليـه السلام : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ »(٢) . وقال فى قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »(٣) . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا »(٤) . وقال أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »(٥) . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٦) . فهى كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بمـا أولى من الإحسان(٧) . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعمّ من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر، والجزاء مخصوص إنمـا يكون مكافأة لمن أولاك معروفا، فصار الحمـد أعمّ فى الآية لأنه يزيد على الشكر. ويُذكر الحمـد بمعنى الرضا، يقال : بلوته فحمِدته، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا »(٨) . وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمـد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء وميم ودال، فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الدّيمومية، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أوّلها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته فى جسدك ألا تعصيه، فهذه شرائط الحمد .

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من النـاس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف . (٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وآفتتح كتابه بحمده، ولم يأذن فى ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»[١] . وقال عليه السلام : "آحثُوا فى وجوه المدّاحين التراب" رواه المِقداد . وسيأتى القول فيه فى « النساء »[٢] إن شاء الله تعالى .

فمعنى «الحمد لله رب العالمين» : أى سبق الحمد منّى لنفسى قبل أن يَحْمَدنى أحد من العالمين، وحَمْدِى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلّة ، وحَمْدِى الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع و يدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حَمِد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل؛ فآستفراغ طَوْق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله : "لا أُحصِى ثناء عليك" . وأنشدوا :

إذا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عليك بصالحٍ ❊ فأنتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذى نُثْنِي

وقيل : حَمِد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فَحَمِد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة .

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » . ورُوى عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج : « الحمدَ لله » بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل . ويقال : «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائده فى هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك : حمدت الله حمدا ؛ إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله ؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرّضًا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا ؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث: "مَن شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . وقيل : إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلِّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله . قال الطبرى: «الحمد لله»

---

(١) آية ٣٢ سورة النجم .		(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجىء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلَمُ أننى سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النَّواعِجُ[1] لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ٱبن أبى عَبْلَة: «الحمد لله» بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأوّل؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو: أجُوءُك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم. قال:

* ... ٱضرب الساقينُ أُمُّك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة. وفى قراءةٍ لأهل مكة «مُرُدفين» بضم الراء إتباعا للميم، وعلى ذلك «مُقُتلين» بضم القاف. وقالوا: لِإمِّك، فكسروا الهمزة ٱتباعا للّام؛ وأنشد للنعمان بن بشير:

ويِلِ ٱمِّها فى هَــواءِ الجَوِّ طالبةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مَطْلوبُ[2]

الأصل: ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى وٱستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ. وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ: «الحمدِ للهِ» بكسر الدال على إتباع الأوّل الثانى.

الثامنــة — قوله تعالى: رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أى مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو ربّه؛ فالربّ: المالك. وفى الصحاح: والرب ٱسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملِك، قال الحارث بن حِلِّزة:

وهُوَ الربّ والشَّهيدُ على يو * مِ الحِيـارَيْنِ[3] والبَـلاءُ بَلاءُ

(١) النواعج من الإبل: السراع. (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده. وهذا البيت نسبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (ج ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لأمرئ القيس (ج ١ ص ٣٥٣). ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لأمرئ القيس أيضا. وقد ورد فى ديوانه: * لا كالذى فى هواء الجو... * وعلى هذا لا شاهد فيه. (٣) الحياران: موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء.

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ»(١) . وفى الحديث : "أنْ تلد الأَمَةُ ربّتها" أى سيدتها؛ وقد بيّناه فى كتاب (التذكرة) . والربّ : المصلح والمدبّر والجابر والقائم . قال الهَرَوِيّ وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء و إتمامه : قد ربّه يربّه فهو ربٌّ له ورابٌّ؛ ومنه سمى الربّانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : " هل لك من نعمة تَرُبُّها عليه " أى تقوم بها وتصلحها . والربّ : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأســه * لَقَدْ ذَلّ مَنْ بالت عليـه الثّعالبُ

و يقال على التكثير(٢) : ربّاه وربّبه وربّته ؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : وربّ فلانٌ ولده يربُّه رَبًّا، وربّبه وتَرَبّبَه بمعنًى؛ أى ربّاه . والمَرْبوب : المربّى .

التاســعة — قال بعض العلماء : إن هــذا الآسم هو آسم الله الأعظم ؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر «آل عمران»(٣) وسورة «إبراهيم»(٤) وغيرهما، ولمـا يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمَرْبوب، مع ما يتضمّنه من العطف والرحمة والآفتقار فى كل حال .

وآختلف فى آشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربيــة؛ فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»(٥) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقــه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الربّ بمعنى المـالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» آختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد ، و إن حذفنا منه صار مشتركا بين الله و بين عباده، فيقال : الله رَبّ العباد، وزيد رَبّ الدار؛ فالله ســبحانه رَبّ الأرباب ؛ يملك المـالك والمملوك ، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رَبٍّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، و إنمـا

(١) آية ٤٢ سورة يوسف . (٢) فى النحاس : «على التكبير» . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٥) آية ٢٣ سورة النساء .

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهـذه المعانى ، فهذا الفرق بين صـفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة — قوله تعـالى :﴿ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ آختلف أهل التأويل فى «العالمين» آختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل؛ لقوله تعالى: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ»(١) أى من الناس . وقال العجّاج :

* تَخِنْدِفُ هامةُ هذا العألَمِ(٢) *

وقال جَرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»(٣) ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع مَن يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون . وهو معنى قول آبن عباس أيضـا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُـدْرى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيـا من شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم، أربعون ألف عالَم فى البر، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيـع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ؛ وسـوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم، خلقهم لعبادته .

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥
(٢) خندف آسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العالم؛ بالهمز والاسكان .
(٣) سورة الفرقان آية ١

قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا »(١) . ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلَامة؛ لأنه يدل على مُوجده . كذا قال الزجاج قال : العالَم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم : ما دلّ على الشيء ؛ فالعالَم دالٌّ على أن له خالقا ومدبرا ، وهذا واضح . وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد: الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : ربّ العالمين ؛ فقال الرجل : ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى ؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وصف نفسه تعالى بعد «ربّ العالمين »، بأنه « الرحمن الرحيم » ؛ لأنه لما كان فى آتصافه بـ « رب العالمين » ترهيبٌ قَرَنه بـ « الرحمن الرحيم » ، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ »(٢) . وقال : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ »(٣) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَط من جنّته أحد" . وقد تقدّم ما فى هذين الآسمين من المعانى، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك؛ قال الشاعر(٤):

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ ٭ عصينا المَلْك فيها أن نَدينا

---

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء. (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر. (٣) آية ٣ سورة غافر.

(٤) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـــر (١) :

فاْقنعْ بمـا قَسَم المليكُ فإنّمـا * قَسَم الخــلائقَ بيننا علاّمُها

الخلائق : الطبائع التي جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى «مَلِك» فيقرأ «مَلِكِى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — آختلف العلماء أيّما أبلغ : مِلك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا؛ ولأن أمر المَلِك نافذ على المـالك فى مِلْكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل: «مالك» أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرّفًا وأعظم ؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملّك .

وقال أبو علىّ: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن آختار القراءة بـ«ـملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شيء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولا حجة فى هذا ؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : « هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ »فالخالق يعمّ . وذكر المصوّر لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعـالى : « وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب آعتقادها ، والردّ على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » . وقال أبو حاتم: إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «مِلك» ، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، وآختار هـذا القول القاضي أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأوّل : أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ و إذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك ؛ ولا تقول : ملِك المُلْك . قال ٱبن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك -بكسر الميم- وهو لا يتضمن «المُلْك» — بضم الميم — و «ملِك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أوْلى بالمبالغة . ويتضمّن أيضا الكمال، ولذلك ٱستحق الملك على من دونه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ»[1] ، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العَجَم وأشرف . ويتضمّن الٱقتدار والٱختيار، وذلك أمر ضرورى فى المَلِك، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوّه وغلبه غيره وٱزدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَا لِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»[2] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

قلت : وقد ٱحتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمّى أحد بهذا الٱسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخاريّ ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن أَخْنَع ٱسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عزّ وجلّ" قال سفيان[3] : «مثل : شاهانْ شاهْ . وقال

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧		(٢) سورة النمل آية ٢٠ ، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانيّ عن أخنع ؛ فقال : أَوْضع » . وعنــه قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه" . قال ابن الحصار : وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغي أن يُختلف في أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمــالك وملك وهي :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظــيم : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمّتي عُرِضُوا عليّ غُزاةً في سبيل الله يركبون ثَبَجَ(٢) هذا البحر ملوكا على الأَسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أي سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله في العــام المقبل ، تأويله سيحج في العــام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليــه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمــا أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : «مالك يوم الدين» على تأويل الاستقبال ، أي سيملك يوم الدِّين أو في يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المــالك راجعا إلى القدرة ؛ أي إنه قادر في يوم الدين ، أو على يوم الدين وإحداثه ؛ لأن المــالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أَمَسّ بالعربية وأنفذ في طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجي .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ »(١) فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فآستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت آستقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٢) . وجَمْعُ يومٍ أيام ؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أَيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز(٣) :

* نِعْمَ أخو الهيجاء في اليوم ٱلْيَمِي *

وهو(٤) مقلوب منه ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال آبن عباس وآبن مسعود وآبن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ »(٥) أي حسابهم . وقال : « ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »(٦) وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »(٧) أي مجزيّون محاسبون . وقال لَبيد :

---

(١) سورة غافر آية ١٦ . (٢) سورة المائدة آية ٣ . (٣) هو أبو الأخزر الحماني كما في اللسان مادة « يوم » . (٤) قوله : « وهو » أي اليمي . (٥) سورة النور آية ٢٥ . (٦) سورة الجاثية آية ٢٨ . (٧) سورة الصافات آية ٥٣

حصَادُك يومًا ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يوماً كما هو دائن

آخـــر :

إذا ما رمـــونا رميناهـــمُ * ودِنّاهُم مثـــل ما يُقرضـــونا

آخـــر :

وآعلم يقينـا[١] أن مُلْكك زائلٌ * وآعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته ؛ ومنه الدّيّان فى صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفى الحديث : " الكيِّس من دان نفسه " أى حاسب . وقيل : القضاء . روى عن آبن عباس أيضا ؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولَة[٢] مَعْبَـدٍ * على جُدِّها[٣] حَرْبًا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـرٍّ طِـوالٍ * عَصينا المَلْكَ فيها أن ندينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيـة والعشرون — قال ثَعْلَب : دانَ الرجل إذا أطاع ، ودان إذا عصى ، ودان إذا عَزّ ، ودان إذا ذلّ ، ودان إذا قهر ؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن ، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المُثقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرَأْتُ لهـا وضِينِى[٤] * أهـذا دينُـــه أبدًا ودِينى

---

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد آغتصبه آبنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجدّ (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ . والخطاب لعمرو بن هنـد وقد أغار على إبل معبـد أخى طرفة . (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير .

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللتَ بجوّ فى بنى أسد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ[1]

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدّاء ؛ عن اللحيانى . وأنشد :

* يادِينَ قلبِك من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أوّل السورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعالى وثناءً عليه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»[2] . ثم قال : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ[3] فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ» على ما يأتى . و﴿نَعْبُدُ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّد إذا كان مذلّلا للسالكين؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ «إياك نعبد وإياك نستعين» فقد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه؛ فقال له الساب : إياك أعنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا نعبد إياك ونستعين إياك؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجّاج :

إيّاك أدْعُو فتقبّل مَلَقِى * واغفر خطاياى وكثّر ورِقى

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «إنه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا . وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو — بالخاء المعجمة — : «ويوم خو لبنى أسد، قال زهير — وذكر البيت — قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع .. » . وفدك : موضع بخيبر . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

ويروى : وثِمَّر . وأمّا قول الشاعر[1] :

* إليكَ حتى بَلَغَتْ إيّاكا *

فشاذٌّ لا يقاس عليه . والوِرق بكسر الرّاء من الدراهم ، و بفتحها المال . وكرر الاسم لئلا يتوهّم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» فى الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد : «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها؛ وقد تُفتح . وقال[2] :

سَقَتْهُ إيَاةُ الشّمس إلا لِثاتِه * أُسِفّ فلم تَكدِم عليه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . و يقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشىّ : «أيّاك» (بفتح الهمزة) وهى لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوِى : «هيّاك» فى الموضعين، وهى لغة؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسّعتْ * موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

عطف جملة على جملة . وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش : «نِستعين» بكسر النون، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة؛ ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل . وأصل «نستعين» نستعوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

آستعانة ، والأصل آستعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عِوَضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ آهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

إهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُرْبك . قال بعض العلماء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به ؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»(١) أى مِلنا ؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين آثنين ، أى يتمايل . ومنه الهدية ؛ لأنها تمال من ملك إلى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق إلى الحَرَم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : «الصراط المستقيم» طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية فى قوله عزّ وجل « آهدنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحْوَل عن أبى العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنَّا أرضَهم بالخَيْل حتى * تركناهم أذلّ مِن الصّراط

وقال جَرير :

أمير المؤمنين على صِراط * إذا آعْوجّ الموارِدُ مُسْتَقيم

وقال آخر :

* فَصَدّ عنْ نَهْج الصِّراطِ الواضح *

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغـة الروم ؛ قال ٱبن عطية : وهـذا ضعيف جدّا . وقُرئ : السراط (بالسين) من الاَسْتراط بمعنى الاَبتلاع؛ كأن الطريق يسترط مَن يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال: الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى الْقَيْن، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول الثانى؛لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر؛قال الله تعالى: «فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[1] . و بغير حرف كما فى هـذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « لصراط » . وهو الذى لا ٱعوجاج فيه ولا ٱنحراف ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ»[2] وأصله مُستقْوِم، نقلت الحركة إلى القاف وٱنقلبت الواو ياء لاَنكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأوّل بدل الشىء من الشىء؛ كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه[3] : أَدِم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيـل : هو صراط آخر ، ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « الَّذِين » فى الرفع والنصب والجر؛ وهُذَيل تقول : اَللَّذُون فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو[4] ، ومنهم من يقول : الذى[5]؛ وسيأتى .

وفى «عليهم» عشر لغات؛ قرئ بعامتها : «عليهُمْ» بضم الهاء و إسكان الميم . «وعليهِم» بكسر الهـاء وإسكان الميم . و « عليهِمِى » بكسر الهـاء والميم وإلحـاق ياء بعد الكسرة . و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهـاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و «عليهُمُ» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (٣) أى قوله تعالى : « ٱهدنا » وما بعده . (٤) قال أبو حيان فى البحر : وٱستعماله بحذف النون جائز . كذا فى اللسان .
(٥) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

« عليهُمِى » بضم الهاء وكسر الميم و إدخال ياء بعد الميم ؛ حكاها الحسن (١) البصرى عن العرب . و « عليهُمِ » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و «عليهِمُ» بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و «عليهِمِ» بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب ؛ قاله ٱبن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضى الله عنهما « صراط مَن أنعمت عليهم » . وٱختلف الناس فى المُنْعَم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٢) » . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم ، وهو المطلوب فى آية الحمد ؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع ، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه ، طاعةً كانت أو معصيةً ؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه ؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم ؛ فلو كان الأمر إليهم والٱختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية ، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة ؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه ، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم ، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (٣) » الآية .

الثانيــة والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴿٧﴾

ٱختلف فى «المغضوب عليهم» و «الضالين» من هم ؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى ؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه ، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ (٣) راجع جـ ٤ ص ١٩

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم »(١) وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »(٢) . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِيّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره ؛ وليس بشىء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود ؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» بآتباع البدع ؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع ؛ لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض ؛ سُمّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

أَلم تَسْأَلْ فتُخْبِرَكَ الدِّيارُ * عن الحَيِّ المُضَلَّلِ أَيْنَ ساروا

والضُّلَضِلَة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه ، قال :

* أَوْ غَضْبَة فى هَضْبَة ما أَمْنَعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأُبَيّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

أو من الهاء والميم فى «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأُمرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول: الحىّ غير الميت ، والساكن غير المتحرّك ، والقائم غير القاعد، قولان : الأوّل للفارسىّ، والثانى للزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — «لا» فى قوله «ولا الضالين» اختلف فيها، فقيل هى زائدة ؛ قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[1] .وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكىّ والمهدوىّ.وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير، وهى قراءة عمر وأُبَىّ؛ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مَدّة الألف واللام المدغمة.وقرأ أيوب السختيانىّ: «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة. حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ »[2] . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوَالى بالعبيط احمأرّت[3] *

نُجز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمنّة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبى حيان والبيت كما فى ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا * اذا ما احمأرّت بالعبيط العواملُ

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنتها؛ واحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . واحمرّ الشىء واحمأرّ بمعنى .

تفسير سورة البقرة

" بحول الله وكرمه ، لا ربّ سواه "

وأول مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

سورة البقرة مَدَنيّة ، نزلت فى مُدد شتّى . وقيل : هى أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »(1) فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحر فى حَجّة الوَدَاع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لها : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد ابن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى ٱثنتى عشرة سنة ، وٱبنُه عبدُ الله فى ثمانى سنين كما تقدّم .

قال ٱبن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمْر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِنًّا لحفظه سورة البقرة، وقال له : "ٱذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أُمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ٱقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركَها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة"، قال معاوية(2) : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة " . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال: إن لكل شىء سَناما وإن سَنام القرآن سورةُ البقرة، وإن لكل شىء لُبابا وإن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِىّ

---

(1) راجع ج ٣ ص ٣٧٥ (2) معاوية هذا ، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام " . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صــلى الله عليه وســلم : " لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام " أراد : مردة الشياطين . وروى الدّارِمىّ فى مسنده عن الشّعْبيّ قال قال عبدالله : من قرأ عشر آيات من ســورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ؛ أربعا من أولها وآية الكرسى وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ؛ أولهــا : « لِلّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبي عنــه : لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شــيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقرَأن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قــد حَفِظ . قال أبو محمد الدارمى : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر](1) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر فى الإسلام ، وسأله عمر فى خلافته عن شعره واستنشده ؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمنى الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل فى الإسلام إلا قوله :

الحمــــد لله إذ لم يأتنى أجـــلِى　*　حتى اكتسيتُ من الإسلام سِربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولى ، وهو أصح عندى .

وقال غيره : بل البيت الذى قاله فى الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه　*　والمرءُ يصلحه القَرِينُ الصالح

وسيأتى ما ورد فى آية الكرسى وخواتيم البقرة(2) ، ويأتى فى أوّل سورة آل عمران(3) زيادة بيان لفضل هذه السورة ، إن شاء الله تعالى .

(1) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (جـ ١ ص ٢٢٥) طبع الهند .　(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" رب يسّــر وأعِن "

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبِىّ وسفيان الثَّوْرِىّ وجماعةٌ من المحدّثين : هى سِرّ الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب مِن كُتُبه سِرٌّ . فهى من المتشابه الذى آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها[1] ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذى لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة فى القرآن إلا فى أوائل السُّوَر ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم[2] قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به[3] ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختباراً من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ؛ فمن آمن بها أُثيب وسعد ، ومَن كفر وشكّ أثِم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ؛ ثم قرأ : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ » .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... ونمرّ كما » الخ . وفى نسخة : « ونمرّ كما جاءت » .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب الربيع بن خثيم» بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) فى نسخة من الأصل : « تجزون به » .

قلت : هــذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعــالى[١] . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهــا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهــا ؛ وٱختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ٱبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن ٱسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العــرب حين تحــدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنــه أبلغ فى الحجــة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند ٱستماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « الٓمٓصٓ » ٱستنكروا هذا اللفظ ، فلما أَنْصَتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم و يقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمــا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : «لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ»[٢] نزلت ليستغربوها فيفتحون لمــا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول ٱبن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح ٱسمه الله ، واللام مفتاح ٱسمــه لطيف ، والميم مفتاح ٱسمه مجيــد . و روى أبو الضُّحَى عن ٱبن عباس فى قوله : « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم ، « الٓر » أنا الله أرى ، « الٓمٓصٓ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن ٱسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . وٱختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لهــا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهــا قِفِى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخــير خيراتٍ و إن شــرًّا فَا * ولا أريــد الشر إلا أنْ تَا

أراد : و إن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩		(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

وقال آخر :

نادوهـم ألَا ٱلجِمُـــو ألَا تَا * قالـوا جميعا كلهـم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فآركبوا . وفى الحـديث : "مَن أعان على قتـل مسلم بشـطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول فى آقتـل : أقْ ؛ كما قال عليه السـلام "كفى بالسيف شا" معناه : شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسُّوَر . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعـالى بها لشرفها وفضلها ، وهى من أسمائه؛ عن آبن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقـد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القَسَم قوله تعـالى : « لا رَيْبَ فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون « لا » جواب القَسَم . فثبت أن قول الكلبى وما رُوى عن آبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القَسَم من الله تعـالى، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدّق، ومكذّب؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم، والمكذب لا يصدق مع القَسَم؟ . قيل له : القرآن نزل بلغـة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه؛ والله تعـالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنـده . وقال بعضهم : « الٓمٓ » أى أنزلت عليك هـذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الٓمٓ » قال آسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أوْدع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو ولِىّ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هـذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها . وآختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل: لا؛ لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة ؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجّى فهى محكيّة. هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السُّوَر فوضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر؛ أى هـــذه « الٓمٓ »؛ كما تقول: هذه سورة البقرة. أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ٱبن كَيْسان النحوى : « الٓمٓ » فى موضع نصب؛ كما تقول : ٱقرأ « الٓمٓ » أو عليك « الٓمٓ ». وقيل: فى موضع خفض بالقسم؛ لقول ٱبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل: المعنى هذا الكتاب. و«ذلك» قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، و إن كان موضوعا للإشارة إلى غائب؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ[(١)] » ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرمحُ يأطِرُ[(٢)] متْنَه　*　تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا. فـ«ذلك» إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا، تلخيصه: الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه. وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ[(٣)] » « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ[(٤)] » أى هذه؛ لكنها لمــا ٱنقضت صارت كأنها بَعُدت فقيــل تلك . وفى البخارىّ « وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن » . ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة؛ كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ[(٥)] » هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك» ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَج[(٦)] هذا البحر " أى ذلك البحر، والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

وٱختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة؛ فقيل : «ذلك الكتاب» أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه؛ أى لا مبدّل له . وقيل: ذلك الكتاب؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " لمــا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : "سبقت" . وقيل:

(١) سورة السجدة آية ٦　　(٢) يأطر : يثنى .　　(٣) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢　　(٥) سورة الممتحنة آية ١٠　　(٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ " الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »(١) لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنيرًا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » ٱسم للقـرآن؛ والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ماليس فيهما . وقيل : إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أومثل ذَيْنِك الكتابين ؛أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذَيْنِك الكتابين ؛ فعبّر بـ«ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ »(٢) أى عوان بين تَيْنِك : الفارض والبكر ؛ وسيأتى. وقيل: إن «ذلك» إشارة إلى اللَّوح المحفوظ . وقال الكسائى: «ذلك» إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا. وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتُكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر مِن كَتَب يَكْتُب إذا جمع؛ ومنه قيـل : كَتيبة؛ لاجتماعها. وتكتّبت الخيل صارت كتائب . وكتبْتُ البغلةَ : إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر؛ قال :

لا تأمَنَنَّ فَزارِيًّا خلَوْتَ به * على قَلُوصك وٱكتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزة، والجمع كُتَب. والكَتْب : الخَرْز . قال ذو الرُّمة :

وَفْراءَ غَرْفِيّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها * مُشَلْشِلٌ ضيّعته بينها الكُتَب[(١)]

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أومتفرقة؛ وسُمِّيَ كتابا وإن كان مكتوبا؛ كما قال الشاعر :

تُؤَمِّل رجعةً منّى وفيها * كتابٌ مثلَ ما لِصق الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدِيّ :

يآبنةَ عمِّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرَّيْب ثلاثة معان :

أحدها ــ الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمةُ ريْبٌ * إنما الرَّيبُ مايقول الجهول

وثانيها ــ التُّهَمَة؛ قال جَمِيل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِى * فقلت كِلَانا يا بثين مُرِيب

وثالثها ــ الحاجة؛ قال[(٢)] :

قضينا من تِهَامَةَ كلَّ ريْب * وخَيْبَرَ ثم أَجْمَعْنَا السيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا آرتياب؛ والمعنى: أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا. وتقول: رابنى هذا الأمرُ إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

---

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة . و«غرفية» : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . والثأى والثأى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

الأولى – قوله تعالى : ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بفى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فِيهِ هُـدًى . ويليه فيهُ هُدًى (بضم الهاء بغير واو)[1] وهى قراءة الزُّهْرِى وسلّام أبى المنذر. ويليه فِيهِى هُدًى (بإثبات الياء) وهى قراءة آبن كثير. ويجوز فيهُو هُدًى (بالواو). ويجوز فيه هدى (مدغما) وآرتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى فى كلام العرب معناه الرّشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى.

الثانيـــة – الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[2]. وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[3] فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييـد والتوفيـق، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ »[4] فالهدى على هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت. قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ»[5] ومنه قوله تعالى : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[6] معناه فآسلكوهم إليها.

الثالثـــة – الهدى لفظ مؤنّث. قال الفرّاء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسـنة. وقال اللّحيانى : هو مذكّر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»[7]، تقول: هدَيْتُه الطريق وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار، أى عرّفته. الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش. وفى التنزيل : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[7] و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا»[8]. وقيل: إن الهُدَى آسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول آبن مُقْبِل :

(١) أى بعد الهاء من «فيه». (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء. (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

[حتى ٱستبَنْتُ الهُدَى والبِيـدُ هاجمةٌ * يَخشعْنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصـلّينا][1]

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهـم آمنوا وصدّقوا بما فيـه . وروى عن أبى رَوْقٍ أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم . وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لألتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى ٱجتماع الواو والتاء وأدغمت التـاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســـة — التقوى يقال أصلها فى اللغـة قلّة الكلام؛ حكاه ٱبن فارس . قلت : ومنه الحديث: "التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من ٱتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ[2] ولم ترد إسقاطه * فتناولتـــه وٱتّقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وٱتّقت * بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعصَمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِىٍّ أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَةَ عن زِرِّ بن حُبيش عن ٱبن مسـعود قال قال يوما لٱبن أخيـه : يا ٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعـم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يا ٱبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقى من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى ٱتقى الشرك و برئ من النفاق . قال ٱبن عطية : وهذا فاسد؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضوع .

(٢) النصيف : ثوب تجلل به المرأة فوق ثيابها كلها؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمَّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هذا المعنى ٱبن المُعتَزّ فنظمه :

خَلِّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التّقى
وٱصنع كماشٍ فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادسة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأوّلين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء ؛ فقال :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما ٱستفادا

وروى ٱبن ماجه في سننه عن أبي أُمامة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يقول : "ما ٱستفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرّته وإن أقسم عليها أبرّته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله".

والأصل في التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أي منعته ؛ ورجلٌ تقيّ أي خائف ، أصله وقي ؛ وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع خفض نعت «للمتقين»، ويجوز الرفع على القطع أي هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمان في اللغة : التصديق ؛ وفي التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا »[1] أي بمصدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ »[2] « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى »[3] . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

الأحول — ويلقب بزِقّ العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فإن نفسك مائلة إلى السآمة والفترة والملّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المُتقوِّى ، والمؤمن هو المتشدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] إلى الله الليل والنهـار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانيـة حتى ٱستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منـه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — وٱختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه ٱبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيـه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسـول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ٱبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبيّ صـلّى الله عليه وسـلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »[3] وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ »[4] . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئِىّ فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والٱستدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .	(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ .	(٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

فهم يؤمنون أن لهم رَبًّا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم بآطلاعه عليهم ، وعلى هــذا تتفق الآى ولا تتعارض ، والحمد لله .
وقيل : «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين ، وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقــد كان قومُنا * يصلّون للأوثانِ قبل محمّد

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّـلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة . وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها ، على ما يأتى بيانه . يقال : قام الشيء أى دام وثبت ، وليس من القيام على الرِّجْل ؛ وإنمـا هو من قولك : قام الحق أى ظهـر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحــوا * حتى تُقِيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل : « يقيمون » يديمون ، وأقامه أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيّعها فهو لمـا سواها أضيع .

الخامســـة — إقامة الصلاة معروفة ، وهى سنة عند الجمهور ، وأنه لا إعادة على تاركها . وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وآبن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظـاهر ، وروى عن مالك ، وآختـاره آبن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى " وأقم " فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والآستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال آبن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم : " وتحريمها التكبير " دليل على أنه لم يدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم ، فمـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شيء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك . وقال بعض علمائنا : مَن تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لآستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن ، والله أعلم .

السادســـة ـــ وآختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع و إن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فـا أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فأتِمُّوا ". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ثُوب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن لِيَمْشِ وعليه السَّكِينة والوقار صَـلِّ ما أدركت وآقضِ ما سبقك " . وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع آنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتهـا وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم آبن عمر وآبن مسعود على آختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين المـاشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر المـاشى .

قلت : وآستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسـلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك المـاشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمـد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة " . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعـله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعـالى : «فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»[2] وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء . (٢) سورة الجمعة آية ٩

السابعـــة — وآختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتِمّوا" وقوله: "وآقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أوْلا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمـام ، قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(1) وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ »(2) . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أوّل صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأوّل جماعة من أصحاب مالك — منهم آبن القاسم — ولكنه يقضى ما فاته بالحمـد وسورة ، فيكون بانيـا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال آبن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهو الذى عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود آبن علىّ . وروى أشهب وهو الذى ذكره آبن عبَد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن آبن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال آبن عبد البر : من جعل ما أدرك أوّلَ صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمـام هو الآخر .

وآحتج الآخرون بقوله : "فآقضوا" والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى «فأتموا» أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة المـاجِشُون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء آطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنـــة — الإقامة تمنع من آبتداء صلاة نافلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة

---

(1) سورة الجمعة آية ١٠ . (2) سورة البقرة آية ٢٠٠

فلا يقطعها ؛ لقوله تعـالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ »[1] وخاصة إذا صـلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاسـعة — وآختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلّى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأَنْ يصـلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد ، ثم يدخل مع الإمام وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد مالم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حَىّ ويقال آبن حَيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوّع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد . وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمـد بن حنبل وحُكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليـه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة" . وركعتا الفجر إمّا سـنة ، وإمّا فضيلة ، وإمّا رَغيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن آبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجـة الثَّورى والأوزاعى ما روى عن عبـد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقـد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوانة[2] فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١) سورة محمد آية ٣٣	(٢) الأسطوانة : العامود .

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك آبن بُحَيْنة[(١)] قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صَحّت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العاشرة — الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليُصَلّ " أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف ؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »[(٢)] أى آدع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقــد قَرُبتُ مرتحــلًا * يا ربّ جنّب أبى الأوْصاب والوجَعَا
عليــكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغتمِضِى * نومًا فإن لجَنْبِ المــرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرّيحُ فى دَنِّهـا * وصلّى على دَنّها وارْتَسَمْ

آرتسم الرجل : كبّر ودعا ؛ قاله فى الصحاح. وقال قوم : هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه ، ومنه أخِذ المُصَلِّى فى سبق الخيل ؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلَوَى السابق ؛ فآشتقت الصلاة منه ، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّى من الخيل ، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه . والصَّلا : مَغْرِز الذَّنَب من الفرس ،

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

والأثنان صلوان . والمُصَلّي : تالي السابق؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال عليّ رضي الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلّى أبو بكر وثَلّث عمر . وقيل : هي مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صَلِيَ بالنار إذا لزمها ؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »(١) . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِهـا علم اللّـ * ـهُ وإنّي بحرّها اليومَ صالِ

أي ملازم لحرّها ؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذي أمر الله تعالى به . وقيل : هي مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت ، فقلت صَلا النار. فكأنّ المصلي يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجي(٢) :

فلا تعْجل بأمرك وآستدمْهُ * فمـا صَلّى عصاكَ(٣) كمستديمِ

والصلاة: الدعاء. والصلاة: الرحمة؛ ومنه: "اللّهمّ صلّ على محمد" الحديث . والصلاة: العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ»(٤) الآية؛ أي عبادتهم . والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ »(٥) . والصلاة التسبيح؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ »(٦) أي من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل في تأويل «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ»(٧) : نصلّي. والصلاة: القراءة؛ ومنه قوله تعالى : «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ»(٨) فهي لفظ مشترك . والصلاة: بيت يصلّى فيه؛ قاله آبن فارس . وقد قيل: إن الصلاة آسم عَلَم وضع لهذه العبادة؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع، ولم يُخلِ شرع من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيري .

قلت : فعلى هذا القول لا آشتقاق لهـا ؛ وعلى قول الجمهور وهي : —

الحادية عشرة — آختلف الأصوليون هل هي مبقاة على أصلها اللغوي الوضعي الأبتدائي، وكذلك الإيمـان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنمـا تصرف بالشروط والأحكام ، أوهل

(١) سورة الغاشـية آية ٤ .
(٢) كذا في جميع الأصول وفي اللسان والتـاج مادة (صـلا) : « ... قيس بن زهـــير » .
(٣) كذا في جميع الأصول . وفي اللسان : « عصاه » .
(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .
(٥) سورة طـــه آية ١٣٢ .
(٦) سورة الصافات آية ١٤٣ .
(٧) سورة البقـــرة آية ٣٠ .
(٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هنا اختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكّمٌ فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدبّ؛ ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّمٌ فى الأسماء ، والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معًا ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتّقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية؛ على ما يأتى بيانه فى « طه »(١) إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال: هجّر(٢) النبىّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكمت دَرْدَه " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء " . فى رواية : " أشكمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه(٣) أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها : الطهارة، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء(٤) والمائدة(٥) . وستر العورة، يأتى فى الأعراف(٦) القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لها، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه ، وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

حتى تعتــدل قائما ثم ٱسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ٱرفع حتى تطمئن جالسا ثم ٱفعــل ذلك في صلاتك كلهــا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِي وغيره . قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما (١) . وأما رفع اليــدين فليس بواجب عند جماعة العلمــاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود و بعض أصحابه بوجوب ذلك عنــد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنــد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، وإنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدى، ورواية عن الأوزاعى . وٱحتجوا بقوله عليه السلام : " صلّوا كما رأيتمونى أصلّى " أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان ٱبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فمــا فوقها سجد للسهو قبــل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته ؛ وإن نسى تكبيرة واحدة أو ٱثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شىء عليــه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهــا . وهــذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنــه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شىء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شىء عليــه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح، وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهــل الحديث والمــالكيين غيرَ من ذهب مذهب ٱبن القاسم . وقد ترجم البخارى

(١) راجع ص ١١٧ ، ١٦٤ من هذا الجزء .

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، و إذا رفع رأسه كبّر، و إذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدِى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هــذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لقــد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، و إذا قام و إذا وضع، فأخبرت آبن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أُمَّ لك![1] فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا علىّ يومَ الجَمَل صلاة أذكرنا بهـا صلاة رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيـام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ و بالله التوفيق .

الخـامسة عشرة ــ وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبــه إسحاق بن رَاهْوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليــه السلام : " أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فآجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم ".

السادسة عشرة ــ وأما الجلوس والتشهد فآختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمـاء الجلوس الأوّل وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[2] من المُزَابنة[3]، والقِراض[4] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. وآحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله : لا أم لك . فى نهاية ابن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعرَف لك أم . وقيــل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعدٌ » . (٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمــر . (٣) المزابنة : بيــع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا، و بيع الزبيب بالكرم . (٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال بجزء من ربحه .

العامد لتركه تبطل صـلاته كما لا تبطل بترك سنن الصـلاة . آحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصـلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به، كما لو ترك سجدة أو ركعة؛ و يراعى فيه مايراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمـا فقاموا؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم .

وآختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والســلام فرض . وممن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة، و به قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وآحتجوا بأن بيان النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلاما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتمونى أصلى " .

القول الثانى : أن الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، و إنما ذلك كله سنة مسنونة؛ هذا قول بعض البصريين، و إليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى ، فخالف الجمهور وشذّ ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس (١) . وهذا اللفظ إنمـا يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) فى بعض الأصول : « المقتبس » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . وآحتجوا بحديث آبن المبارك عن الإفريقي عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم في آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال آبن العربي : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا في الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أينَ الضّراطُ من السلامِ عليكمُ

قال آبن العربي : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثاني : فوقع في الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا مما لا ينبغي أن يلتفت إليه في الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية . وآحتجوا بأن قالوا : ليس شيء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان ، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، وآحتج إسحاق بحديث آبن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدّارَقُطْنيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام آبن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابة ثقة . وقد تابعه غسّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام آبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — وٱختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشــة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم " وهذا الحديث أصــل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بٱتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو ٱفتتح رجل صلاته بسبعين ٱسما من أسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، و إن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهــدى لحديث علىّ ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد ٱختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الٱفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال ٱبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقــد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هــذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنهــا فرض وركن من أركان الصلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وٱختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منــه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هــذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمــالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن ٱبن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدّثنــا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمــد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة آستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير ؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم ، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم ، فكان أبلغ فى المعنى ؛ والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن آفتتح بلا إلٰه إلا الله يجزيه ، وإن قال : اللهم آغفر لى لم يجزه ، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال آبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة ، فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره ، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال آبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين ، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته ، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون — وآتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة ؛ وحقيقتها قصد التقرب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال آبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا ، أو قبل ذلك بشرط آستصحابها ، فإن تقدمت النية وطرأت غفلةٌ فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى آقترانها بأوله . قال آبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية ، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة ، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل ، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة ، لأن

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»[1] والأوقات فى «هود[2] وسبحان[3] والروم[4]» وصلاة الليل فى «المزمل[5]» وسجود التلاوة فى «الأعراف[6]» وسجود الشكر فى «ص[7]» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فما بعد. (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فما بعد. (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعد . (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣ .

وأن الله تعـالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ»(١) وقال : «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ»(٢) وقال : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا»(٣) وهذا قاطع ؛ فالله تعـالى رازق حقيقة وآبن آدم رازق تجوزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة(٤)؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خَرَّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ(٥) وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصـدر رزق يرزق رَزقا ورِزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتّان [بيض](٦) . وآرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغـة . وقال آبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدِشَـنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»(٧) أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المـال من اليد ؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشـترى . ونَفَقت الدابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافِقاء لجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق ؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونَيفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى: «إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ»(٨) .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد .
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة من اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

الخامسة والعشرون — وآختلف العلماء فى المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن آبن عباس — لمقارنتها الصـلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن آبن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينارٌ أنفقتَه فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رَقَبَة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتـه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قِلابة[1]: وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة: وأىُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صـدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة آحتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقرّبون بهـا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات فى «براءة»[2] . وقيـل : إنه الحقوق الواجبة العارضـة فى الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لمـا قرنه بالصـلاة كان فرضا، ولمـا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهـم الشرع من زكاة وغيرها ممـا يعنّ فى بعض الأحوال مع ما ندبهم إليـه . وقيـل : الإيمان بالغيب حظ القلب . و إقام الصـلاة حظ البـدن . ومما رزقناهم ينفقون حظ المـال، وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدّمين فى تأويل قوله تعالى: « ومِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » أى مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشـيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال آبن العربى إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية آنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب. وقيل: الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أى وهم الذين . ومن جعلها فى صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا» (1) الآية. و يقال: لما نزلت هذه الآية: «الذين يؤمنون بالغيب» قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ (2) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرّى وأبو حاتم البُسْتِىّ .

وهنا مسئلة — إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنتُ الأمرَ (بالكسر) يَقَنًا، وأيقنتُ وٱستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى،

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (2) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

وأنا على يقين منه. وإنما صارت الياء واوا فى قولك: مُوقن، للضمة قبلها، و إذا صغرته رددته إلى الأصـل فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع . ور بمـا عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمـائنا فى اليمين اللّغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر (1) :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأيْقنَ أنّنِي ＊ بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمّم الأسـد ناقتى ، يظنّ أنى مُفْتَدٍ بها منه ، وأستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير؛ وسيأتى. والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدّنو؛ على ما يأتى.

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥)

قال النحاس أهل نجد يقولون : أُلَاكَ، و بعضهم يقول: أُلَالِكَ؛ الكاف للخطاب. قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال أُلَاك فواحده ذاك، وأُلَالِك مثل أولئك؛ وأنشد ابن السّكّيت :

أُلَالِكَ قومى لم يكونوا أُشابةً (2) ＊ وهل يَعِظُ الضِّلّيل إلا أُلَالِكَا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء؛ قال الشاعر :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى ＊ والعيشَ بعـد أولئك الأيامِ

وقال تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (3) » وقال علماؤنا : إن فى قوله تعالى : « مِنْ رَبِّهِـمْ » ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم (4)، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم » ، وقد تقدّم الكلام فيه (5) وفى الهُدى فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره «المفلحون»، والثانى وخبره خبر الأول، ويجوز أن تكون «هم» زائدة-يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا- و « المفلحون » خبر « أولئك » .

---

(1) هو أبو سدرة الأسدى ، ويقال : الهجيمى .

(2) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة فى الكسب : ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت .

(3) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩

(4) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩ .

(5) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء.

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـــديد بالحـــديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنمــا هو شقّها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّىَ الأَكَّارُ(١) فلّاحا . ويقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بيّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته : آستَفْلِحِى بأمْرِكِ ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىٌّ مدرك الفلاح * أدركــه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلِّ هَمٍّ من الهموم سَــعَةْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لافَلاحَ مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّهــا حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَرَ

أى البقاء . وقال عبيد :

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَكُ بالضَّـ * ـعْف وقــد يُخَــدَّعُ الأرِيبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل. فمعنى «وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال آبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد آستعمل الفلَاح فى السَّحور؛ ومنه الحديث: حتى كاد يفوتنا الفلَاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: وما الفلَاح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكارِى فى قول القائل(٢) :

لهــا رِطْلٌ تَكِيلُ الزيت فيه * وفَلّاحٌ يســوق لها حِمــارَا

ثم الفلَاح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم و إليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جنّتيهُم؟ فالجواب أن عليهم و إليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم و إلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنّتيهِم، ووافقه الكسائى فى « عليهمُ الذّلة » و « إليهمُ ٱثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضدّ الإيمان وهو المراد فى الآية . وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : " ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء" قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن" ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العَشير و يكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكُفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجومَ غَمامُها *

أى سترها . ومنه سُمّىَ الليل كافرًا؛ لأنه يغطى كل شىء بسواده؛ قال الشاعر[1] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيـدًا بَعْدَمَا * أَلقَتْ ذُكاءُ يَمِينَها فى كافر

ذُكاء (بضم الذال والمدّ) : ٱسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل ٱنبلاج الفجرِ * وٱبْنُ ذُكاءٍ كَامِنٌ فى كَفْر

أى فى ليل . والكافر أيضا : البحر والنهر العظيم . والكافر: الزارع؛ والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ[2] » . يعنى الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

---

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى، يصف الظليم والنعامة و رواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر : أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .　　(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجىء بالاستفهام من أجل التسوية؛ ومثله قوله تعالى : « سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١) » . وقال الشاعر (٢) :

وليــلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمْرًا وهو فى مَهَــلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَنَاذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خَوّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل: هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنمـا مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ» أى إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر « إنّ» «سواء»وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ابن كَيسان. وقال محمد بن يزيد: «سواء» رفع بالابتداء، « أأنذرتهم أم لم تنذرهم »الخبر، والجملة خبر « إنّ» . قال النحاس: أى إنهم تبالهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «أأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ . (٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق: « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، وآختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر[1]:

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بين جُلَاجِلٍ ＊ وبَيْنَ النَّقا آنْت أمْ أمُّ سالِمِ

هجاء « آنت » ألفٌ واحدة . وقال آخر :

تطــالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُه ＊ فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن آبن مُحَيْصِن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، حذف لألتقاء الهمزتين ، أو لأن أم تدل على الاستفهام؛ كما قال الشاعر :

تَرُوحِ مِن الحَيِّ أم تَبْتَكِــرْ ＊ وماذا يَضِــيرُك لو تَنْتَظِــرْ

أراد : أتروح، فاكتفى بأمْ من الألف . وروى عن آبن أبي إسحاق أنه قرأ : «أاأنذرتهم» حقّق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفّف الثانية، وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا . وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين : « أأنذرتهم » وهو آختيار أبي عبيد ، وذلك بعيد عند الخليل . وقال سيبويه : يشبه في الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك رديء؛ لأنهم إنما يخفّفون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهــذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن ؛ لأنه مخالف للسواد[2] . قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : هأنذرتهــم ؛ كما يقال هيّاك وإياك ؛ وقال الأخفش في قوله تعالى : « هَا أَنْتُم » إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللهُ﴾ بيّن سبحانه في هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : «ختم الله» . والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختّم، شدّد للمبالغة، ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما في كتاب سيبويه، والمفصل للزمخشري . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرين والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ »(١) . وقال فى الحمية : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ »(٢) . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(٣) . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ »(٤) . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ »(٥) . وقال فى الموت : « أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ »(٦) . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ »(٧) . وقال فى الرين : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(٨) . وقال فى المرض : « فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا »(٩) . وقال فى الطبع : « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ »(١٠) . وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(١١) . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيــة — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعُوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثــة — فى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٥) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (٦) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (٩) راجع جـ ٧ ص ٨١
(١٠) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (١١) راجع جـ ٦ ص ٧

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضللِ الله فما له من هادٍ »[1] ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنًى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ »[2] . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ »[2] . أي لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعة — قوله : ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر . وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء: رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا مِنْ تقلُّبه　＊　فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٠　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

ثم لمـا نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقًا بينه و بين أصله . روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلّبها الرياح بفلاة " . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : " اللهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك " . فإذا كان النبىّ صـلى الله عليه وسـلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعـالى : «وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» (١) . وسيأتى .

الخامســـة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملِكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليصدُقُ فتُنكت فى قلبـه نكتة بيضـاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه " . وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه " . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : «كَلَّا بَلْ رَانَ (٢) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منـه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقولِه عليه السلام : " إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب — " دليل على أن الختم يكون حقيقيا؛ والله أعلم. وقد قيل: إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة، وهو يَعْضُد قول مجاهد؛ والله أعلم.

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنـا " أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعَلِموا من القرآن وعلِموا من السُّنة " . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : " ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيظَل أثرها مثل الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْلِ كجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شىء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبِح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٠ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ .

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه[1] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله: "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله: "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء؛ وقد فسّره النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "كجمرٍ دحرجته" أى دوّرته على رجلك فنفط. "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا — ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم. وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىُّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخَرُ أسودُ مُرْبَادٌّ[2] كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكِر منكرا إلّا ما أُشْرِب من هواه ..." وذكر الحديث. "مُجَخِّيًا": يعنى مائلا.

السادســـة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[3]. وقال: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»[4] يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ[5] لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم.

السابعـــة — قوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ»[6]. وقال: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ»[7]. قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه (النهاية).   (٢) ويروى: «مربد» أى اختلط سواده بكدرة.   (٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨   (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣   (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧   (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

بتفضيل البصر على السمع ؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضـل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووَحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعاً وسماعا ، فالسّمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا ٱسم للجارحة المسموع بهـا سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ؛ كما قال الشاعر(١) :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيـــضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها فوحّد ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر(٢) فى مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * فى حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد فى حلوقكم ؛ ومثله قول الآخر :

كأنّه وجهُ تُرْكِيّيْن قد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين ، فقال وجه تركيين ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثى — أى ٱستماعك إلى حديثى — يعجبنى ؛ ومنه قول ذى الرُّمة يصف ثورا تَسمَّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توَجّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما فى سَمعه كَذِبُ

(١) هو علقمة بن عبدة ، وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيبة من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت و بدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملق بالفلاة لم يدبغ ، و يقال : الصليب هنا الودك ؛ أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوى ؛ كما فى كتاب سيبويه .

أى مافى ٱستماعه كذب؛ أى هو صادق الاستماع. والنَّدُس : الحاذق . والنَّبْأَة: الصوت الخفى، وكذلك الركز . والسِّمع (بكسر السين و إسكان الميم) : ذِكر الإنسان بالجميل؛ يقال : ذهب سِمْعه فى النـاس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : «وعلى سمعهم» . و «غِشَاوَةٌ» رفع على الابتداء وما قبله خبر . والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطِف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسـعة — ومنه غاشية السَّرْج، وغشيت الشيء أغشيه . قال النابغة :

هلّا سألت بنى ذُبْيان ما حسبِي * إذا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرَمَا(١)

وقال آخر(٢) :

صحبتُـكَ إذ عينى عليهـا غشاوةٌ * فلما ٱنجلتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال ٱبن كَيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفرّاء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله :

* علفتُها تبْنًـا وماء باردا *

وقول الآخر(٣) :

يا ليت زوجَك قـد غدا * متقـلِّدا سـيفًا ورُمْحَـا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسى : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سَعة وٱختيار ؛ فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار، والوقف على «قلوبهم» . وقال آخرون: الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة» . وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ بفتحها ؛ وروى عن

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر و يأكل معهم من لحمه .
(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى ؛ كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبعرى ؛ كما فى الكامل للمبرد ص ١٨٩ طبع أوربا .

أبى عمرو: غشوة؛ ردّه إلى أصل المصدر . قال ٱبن كيسان : ويجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشيء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعتـه . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان. وفى التـنزيل : «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»[1] وهو مشتق من الحبس والمنع؛ يقال فى اللغة : أَعْذِبه عن كذا أى ٱحبسه وٱمنعه؛ ومنـه سمى عذوبة المـاء؛ لأنها قـد أعذبت . وٱستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج؛ أى ٱحبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته؛ وفى المثل: « لألجمنّك لجاما معذِبا » أى مانعا عن ركوب الناس . ويقال : أَعْذَبَ أى ٱمتنع . وأَعْذَبَ غيره ، . فهو لازم ومتعدٍّ ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ٱبن جُريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين، وٱثنتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدّى فى قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس ٱسم جنس، وٱسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـــة — وٱختلف النحاة فى لفظ الناس؛ فقيل : هو ٱسم من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة؛ على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيس . فالناس من النَّوْس وهو الحركة؛ يقال : ناس ينوس أى تحرك؛ ومنه حديث أم زَرْع : « أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ » . وقيل : أصله من نسى؛ فأصل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦٦

ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فآنفتح ماقبلها فآنقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال آبن عباس : نسى آدم عهـد الله فسُمِّىَ إنسانا . وقال عليـه السلام : "نسى آدم فنسِيَتْ ذريّتُه" . وفى التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ»(١) وسيأتى. وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنّما * سُمّيتَ إنسانًا لأنّك ناسِى

وقال آخــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فآغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمى إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر:

وما سُمّىَ الإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا القلبُ إلّا أنّه يَتقلّبُ

الثالثــة — لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين فى مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق : «وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ». ففى هذا ردّ على الكَرّامِيّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ وآحتجوا بقوله تعالى : «فَأَثَابَهُمُ اللهُ(٢) بِمَا قَالُوا» . ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وتَرْكُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والآعتقاد ؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :"الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان". أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه. فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستانى وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الآعتقاد .

الرابعــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١   (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

عليــه ، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة ، وكافر لا يُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر ، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمــان ، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له ، بل محبّ له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمــانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســـة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته ؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرِيةُ فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته ، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد ؛ لمــا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر . ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار ، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبــد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَةً مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسِل الله المَلَك فينْفُخ فيه الرُّوح ويُؤمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . فإن قيل وهى : —

السادسـة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن آبن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغيّر طعمه " قال قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : " أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة " قلت : بلى . قال : " كذلك النشور " قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : " ليس أحد من هذه الأمة — قال آبن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن " .

قلت : وهـذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث آبن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : " وإنما الأعمال بالخواتيم " . وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال؛ والله أعلم .

السابعـة — قال علماء اللغة : إنما سُمّىَ المنافق منافقًا لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها باليربوع، له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى : يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قال علماؤنا : معنى « يخادعون الله » أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسوله خداعا له ؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان

خلاف ما أبطنوه من الكفر، لَيْحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهـم قد نجَوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأوّلين . وقال أهل اللغـة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن ابن الأعرابى . وأنشد :

أبْيَضُ اللونِ لذيذٌ طعْمُه * طيِّبُ الرّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ (١)

قلت : فـ « يخادعون الله » على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم و بين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسَّرا عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم على ما يأتى . وفى التنزيل : « يُرَاءُونَ النَّاسَ (٢) » . وقيل : أصله الإخفاء؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشيء؛ حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : انخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفى و إيجاب ؛ أى ماتحلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : مَن خَدَع من لا يُخْدع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح ؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معـه فى الخداع فإنمـا يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السـلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله ، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وابن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة ؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّق العجليّ : « يُخَدِّعون الله » (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شـدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخـاء وفتح الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر ؛ كما قال تعالى : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » أى من قومه .

---

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخـدعهم وفازوا ؛ وإنمـا ذلك فى الدنيـا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا » على ما يأتى(١). قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشيء أى فطنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لمـا لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، وإما جَحْداً وتكذيباً . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ٱبن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء .

قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفا عن الأنتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِـلَ الرِّيحِ جَنوباً وصَبَاً * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضباً

أى لا تهدها على الأنتصار فيما غضبت منه . وعلى هـذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شرّ خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعـالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »(٢) . وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى بسكونهم الى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها . وقوله : « فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا » أى وَكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى ٱهتمام بالدين . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى . وقال الجُنَيْد : عِلَلُ القلوب من ٱتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦   (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجِع، مثل السميع بمعنى المُسْمِع؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

وتُرفَعُ من صُـدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُـكّ وجوهَهـا وَهَجٌ أليـمُ (١)

وآلم إذا أوْجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقـد أَلِم يألَم ألَمًا . والتألُّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كَريم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكَذِبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — وآختلف العلمـاء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأوّل — قال بعض العلماء : إنمـا لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد آتفق العلمـاء على بَكْرة أبيهم (٢) على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنمـا آختلفوا فى سائر الأحكام . قال آبن العربى : وهذا منتقض ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأن المُجَذَّر قتـل أباه سُويدا يوم بُعاث (٣) ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتـله ؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة (٤) ، وقَتْل الغِيلة حَدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وآنقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيةٌ فى عَيْنٍ بوَحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . وترفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة آبن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

القول الثاني — قال أصحاب الشافعي : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذي يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمـان يُستتاب ولا يُقتل . قال آبن العربي : وهذا وَهَمٌ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن آستتابة الزنديق واجبة(١) وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهـذا المتأخر من أصحاب الشافعي الذي قال : إن آستتابة الزنديق جائزة(٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي" أخرجه البخاري ومسلم . وقد كان يُعطى للؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء آعتقادهم تألُّفًا، وهـذا هو قول علمائنـا وغيرهم . قال آبن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمـه الله في كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضي إسماعيل والأبهري وآبن المـاجشون، وآحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » إلى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا »(٣) . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليـه بها دون آستتابة ؛ وهو أحد قولي الشـافعي . قال مالك : وإنمـا كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضي إسمـاعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَيّ(٤) إلا زيد بن أَرْقَم وحده ، ولا على الجُلَاس(٥) بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعيّ رحمه الله محتجًا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد

(١) الذي في كتاب الأحكام لابن العربي : « ... أن آستتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا في الأصول وكتاب الأحكام لآبن العربي . ولعل صواب العبارة : « إن آستتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥　　(٤) سيذكر الإمام القرطبي قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية . وستأتي قصته عند تفسير هذه الآية في سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها آبن هشام في سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وآبن عبد البر في الآستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند .

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : و إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن مايظهرونه يَجُبُّ ماقبله . وقال الطبرى : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ؛ لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا ، ووَكَل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تُعَيَّن أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص(١) عليه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول : لم أُرَد بها وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيّن أحد لما جَبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه ؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبيّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبّتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقِيَتهم ضرر ، وليس كذلك اليوم ؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» اسم يدلّ على زمان مستقبل ، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

(١) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه ، متهم بالنفاق .

جمــلة؛ تقول : أجيئك إذا آحمرّ البُسْر، وإذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنها آسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقدَم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أُحسن إليك . وإذا كقوله تعالى : « وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »(١) . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها　＊　خُطانا إلى أعدائنــا فنُضارِبِ(٢)

فعطف « فنضارب » بالجــزم على « كان » لأنه مجــزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ، بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه آبنُ ظالمٍ　＊　وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهَير :

وإذا ما تشــاءُ تبعثُ منهــا　＊　مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورا(٣)

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ، كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قَوِل؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فآنقلبت الواو ياء . ويجوز : «قيل لهم» بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين؛لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : ويجوز «قُيل» بضم القاف والياء . وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمــا لم يسم فاعله ، وهى لغــة قيس . وكذلك جِيء وغِيض وحِيل وسِيق وسِيء

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٤　　(٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم .　　(٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

وسِيئت . وكذلك روى هشام عن ٱبن عباس،(١) ورُوَيْس(٢) عن يعقوب . وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصـة . وزاد ٱبن ذَكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون في الجميع . فأما هُـذيل وبنو دُبَير من أسد و بنى فَقْعَس فيقولون : « قَوْل » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الٱستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسِيد . والمعنى فى الآية : لا تُفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيـل : كانت الأرض قبـل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيها الفساد، و يفعـل فيها بالمعاصى؛ فلمـا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱرتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»(٣) .

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة، وهى ٱسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرْضة، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أرَضات؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عُرُسات . ثم قالوا أرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرْض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس؛ كأنهم جمعوا آرُضًـا . وكل ما سـفل فهـو أرض . وأَرْض أرِيضة ؛ أى زكـيّة بيّنة الأراضة . وقد أرِضت بالضم، أى زكت . قال أبو عمرو: نزلنا أرضا أريضة؛ أى معجبة للعين؛ و يقال : لا أرض لك، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقَلِّب أرْضَهـا البَيْطارُ * ولا لَحبْلَيْـهِ بهـا حَبـارُ

(١) فى نسخة : « ابن عامر » . (٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

أى أثر . والأرض : النَّفْضَة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحارث قال : زُلْزِلَت الأرض بالبصرة ؛ فقال ٱبن عباس : والله ما أدرى ! أَزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ؛ وقال ذو الرُّمّة يصف صائدا :

إذا تَوَجّس رِكْزًا من سَنابكها * أوكان صاحبَ أرضٍ أوبه المُوُمُ (١)

والأرض : الزّكام . وقد آرضه الله إيراضا ؛ أى أزكمه فهو ماروض . وفسيل مستأرِض، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض؛ أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك؛ أى أخلقهم . وشىء عريض أريض إتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أريض ؛ أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحُنْ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو، والضمة من جنس الواو ؛ فلما آضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : «نحن» مثل قبلُ وبعدُ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن آثنين وأكثر ، فـ«أنا» للواحد و«نحن» للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ » (٢) . والمؤنّث فى هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ آسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلَحَ الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ؛ قاله آبن السِّكِّيت . والصُّلوح (بضم الصاد) مصدر صَلُح (بضم اللام) ؛ قال الشاعر :

---

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل . وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذهبُ نَفَسَه إلى السماء ويَفْغَر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٣

فكيف بإطراق إذا ما شَتَمْتَنِي * وما بعــدَ شَتْمِ الوالدين صُــلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصِّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ٱبن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهــم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح. وكُسرت «إنّ» لأنها مبتدأة ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها ؛ كما أجاز سيبويه[1] : حقا أنك منطلق، بمعنى ألا . و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر «إنّ» . ويجوز أن تكون «هم» توكيدا للهاء والميم فى «إنهم» . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و «المفسدون» خبر « إنّ » ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ٱبن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لايشعرون أن ذلك فساد،وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق وٱتباعه . «وَلَكِنْ» حرف تأكيدوٱستدراك ولا بدّ فيه من نفى و إثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الاقتصار بعده على ٱسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعــدهما كانتا بمعــنى حقا أنك ... و إذا كسرت كانتا أداتى ٱستفتاح . راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

مضادة لمـا قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت، لأنهم قد آستغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون(١) من أهل يَثْرِب . وألف « آمنوا » ألف قطع؛ لأنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن آبن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء وآستهزاء فأطلع الله نبيّــه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُـلُوم وفساد البصائر إنمـا هى فى حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود؛ أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبـد الله بن سَلَّام وأصحابُه، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة؛ يقال : ثوب سـفيه إذا كان رديء النسج خفيفه ، أو كان باليًا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما آهتزّتْ رماحٌ تسفّهتْ * أعالِيَهـا مَرُّ الرياح النَّواسِـمِ(٢)

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين آهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : آستحقرته . والسّفه : ضـدّ الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء(١) أربعـة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل « وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ، وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عَرَفته ، وعالمتُ الرجل فَعَلَمْتُـه أَعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : وَإِذَا لَقُـوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـوا قَالُوٓا ءَامَنَّـا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَـكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لآلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : « لاقوا الذين آمنوا » . والأصل لاقيوا، تحرّكت الياء وقبلها فتحة آنقلبت ألفا، آجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لآلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل: لم وُصلت «خَلَوْا» بـ«إلى» وعُرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : «خلوْا» هنا بمعنى ذهبوا وآنصرفوا؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

كيف تَرانِى قالبـا مِجَـنِّى * [أَضْرِبُ أَمْرِى ظهرَه لبطْنِ](٢)
* قد قتـل الله زِيادًا عَنِّى *

---

(١) أى مع كلمة ألا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لمـا أنزله منزلة صَرَف . وقال قوم : «إلى» بمعنى مع ؛ وفيه ضعف . وقال قوم : « إلى » بمعنى الباء ؛ وهذا يأباه الخليـل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ؛ فـ«إلى» على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير ؛ وقد تقدم القول فى آشتقاقه ومعناه فى الآستعاذة . وآختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا ؛ فقال آبن عباس والسُّدّى : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه . وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هَزِئ به وآستهزأ ؛ قال الراجز :

قـد هَزِئت منّى أمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مال لَهْ

وقيل : أصل الآستهزاء : الآنتقام ؛ كما قال الآخر :

قد آستهزءوا منهم بألفَى مُدَجّجٍ * سَرَاتُهُمُ وسْطَ الصَّحاصِح جُثَّمُ

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥)

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على آستهزائهم ؛ فسمى العقوبة بآسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ، والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم :

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى آنتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليَزْدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة . وقال

(١) راجع ص ٩٠ (٢) هو صخر الغى الهذلى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية : تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ. » . والجزاء لايكون سيئة . والقصاص لا يكون ٱعتداء؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هزء ولا كَيْد ، إنما هو جزاء لمكرهم وٱستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لايَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا" . قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[1] فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبي عن أبى صالح عن ٱبن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر ٱستهزاءهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم «إنما نحن مستهزئون» بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . «الله يستهزئ بهم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحِجال ينظرون إليهم ، فإذا ٱنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[2] . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو ٱستدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٦

قد حتّم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه ٱستهزاء ومكر وخداع؛ ودلّ على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسـلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه ٱستدراج ". ثم نزع بهذه الآية : «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[(١)]. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وقال بعض العلماء فى قوله تعـالى « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ[(٢)] مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » : كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة.

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُملِي لهم؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي[(٣)] لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » وأصـله الزيادة. قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر، وأمدّ فى الخير؛ قال الله تعالى : «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ[(٤)] وَبَنِينَ». وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ[(٥)] وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ». وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته، وأمددته إذا أعطيته. وعن الفرّاء واللّحيانى: مددت، فيما كانت زيادته من مثله، يقال: مدّ النَّهرُ[النهر][(٦)]، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ[(٧)] مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ». وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره؛ كقولك : أمددت الجيش بمدد، ومنه : « يُمْدِدْكُمْ[(٨)] رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ». وأمدّ الجُرْحُ؛ لأن المِدّة من غيره، أى صارت فيه مِدّة.

قوله تعـالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى[(٩)] الْمَاءُ » أى ٱرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخُزّان. وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى[(١٠)] » أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ». والمعنى فى الآية : يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم.

قوله تعـالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون. وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر. وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامِه

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ، وفيه : ثم تلا « فلما نسوا » الآية بدل نزع. (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (مد). (٧) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع جـ ١٩ ص ١٩٩

وعَمِه : حائر متردّد ، وجمعه عُمْــه . وذهبت إبلُه العُمَّهى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمى فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وفى التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَـكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[1] » .

قوله تعالى : أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَـا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱشْـتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُـدَى ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو فى «ٱشتروا» فرقًا بينها وبين الواو الأصلية، نحو: «وأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» . وقال ٱبن كَيْسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل فى «نحن» . وقرأ ٱبن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر[2] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن قَعْنَب أبى السَّمّال العدوى أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وإن كان[3] ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . وٱشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمـان ؛ كما قال : « فَٱسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فعبّر عنه بالشراء ؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ٱبن عبـاس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه ٱستبدلوا وٱختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعاً ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الٱستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من ٱستبدل شيئا بشىء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُميـنى كنتُ أجهلُ فيكم ✱ فإنى شَرَيتُ[4] الحِـلمَ بعدكِ بالجهـل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧
(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفى المغنى بفتح الميم وضمها » .
(٣) فى بعض الأصول : « وإن ما قبلها مفتوحا » ، وفى البعض الآخر : « وإن كان قبلها مفتوحا » .
(٤) ويروى : « اشتريت » كما فى ديوان أبى ذؤيب . يقول : إن كنت تزعمين أنى كنت أجهل فى هواى لكم وصبونى إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ: « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »(١) أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بَيْعُك ، وخَسِرتْ صفقتك ، وقولهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم ؛ والمعنى : رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك ، وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك ؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نهارُك هائمٌ وليلُكَ نائمٌ　*　كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ابن كَيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الضلال ، وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف ، فهى اسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهَى ذوِى شَطَطٍ　*　كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ(٤)

وقول امرئ القيس :

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وسطَنا　*　تَصَوَّبُ فيه العينُ طَوْرًا وتَرْتَقِي(٥)

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٥　(٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١　(٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لا ينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (من خزانة الأدب) .　(٥) يقول رجعنا بفرس كأنه ابن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، و بمثل ٱبن المـاء. ويجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف. والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه. والمتماثلان: المتشابهان؛ هكذا قال أهل اللغة.

قوله ﴿ الَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع. قال ٱبن الشَّجَرِى هبةُ الله بن علىّ: ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد؛ كما قال:

و إن الذى حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ (١)

وقيل فى قول الله تعالى «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ» (٢): إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى» قيل: المعنى كمثل الذين ٱستوقدوا، ولذلك قال: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ»؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع. فأما قوله تعالى: «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» (٣) فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا. وقيل: إنما وحّد «الذى» و«ٱستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم». وٱستوقد بمعنى أوقد؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب؛ فالسين والتاء زائدتان، قاله الأخفش؛ ومنه قول الشاعر (٤):

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فـلم يَستجِبْه عنـد ذاك مُجِيبُ

أى يجبه. وٱختلف النحاة فى جواب لمّـا، وفى عود الضمير من «نورهم»؛ فقيل: جواب لمّـا محذوف وهو طَفِئت، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى: «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (٥). وقيل: جوابه «ذهب»، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى»؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردّده. والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوله وسكون ثانيه): موضع بين البصرة وضَرِيّة. وقيـل هو واد بطريق البصرة إلى مكة، ببطنه منازل للحاج. قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان).

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١

(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان). (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى و بقى متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمـا آمنوا ٱغترّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ »(١) — ويذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٢) . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وٱنصرافهم عن مودتهم وٱرتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غيرهذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق. وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نو يرة، وفى الجمـع نور وأنوار ونيران، ٱنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتـان ؛ يقال : ضاء القمـرُ يَضُوء ضَـوْءًا وأضاء يُضىء ؛ يكون لازما ومتعدّيا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ(٣) ثاقِبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْله» ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها. و ﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشىء. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم . ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف. وقال الكسائى : «ظلمات» جمع الجمع، جمع ظُلَم. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال: غيرمبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها): ضرب من الخرز . وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

قوله تعالى :﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ «صمٌّ» أى هم صمّ، فهو خبر ٱبتداء مضمر. وفى قراءة عبدالله ٱبن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذم ؛ كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا »[1] ، وكما قال : « وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ[2] الْحَطَبِ » ، وكما قال الشاعر[3] :

سَــقَوْنِى الخمرَ ثم تكنّفُونِى ✽ عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُدَاةَ الله» على الذم. فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن.
ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ»، كأنه قال: وتركهم صما بكما عميا، فعلى هذا المذهب لايحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الآنسداد؛ يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من ٱنسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد. ويقال: رجل أبكم وبَكِيم؛ أى أخرس بيّن الخرس والبكم؛ قال :

فليْتَ لِسانِى كان نِصْفَيْنِ منهما ✽ بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر؛ وقد عَمِىَ فهو أعْمَى ،وقوم عُمْىٌ، وأعماه الله . وتعامى الرجل: أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنــه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ »[4] . وليس الغرض ممـا ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنمـا الغرض نفيها من جهة مّا؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

✽ أَصَمُّ عمّا سَاءَهُ سَمِيــعُ ✽

وقال آخـــر :

وعوراءِ الكلامِ صَمِمتُ عنها ✽ ولو أنى أشاء بهـا سميــعُ

وقال الدارمىّ :

أعمى إذا ما جارتى خرجت ✽ حتى يوارِى جارتِى الجُــدْرُ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم ٱمرأته حين ٱحتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

وقال بعضهم فى وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُــلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وٱخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن ٱستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له.

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "وإذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال: رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعَه غيره، وهُذيل تقول: أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِــعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ[1] » أى يتلاومون فيما بينهم ؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى سـورة « سبأ » .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء . وأنشـــد :

وقد زَعَمَتْ لَيـلَى بأنّى فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورُها[2]

وقال آخـــر[3] :

نَالَ الخلافةَ أو[4] كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيــل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . وٱشــتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِى وبين مُغَمَّرٍ * سَقَتكِ رَوَايا المُـزْنِ حيث تَصُوبُ[5]

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢ (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .
(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .
(٥) المغمـر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ؛ كأن الجهل غمـره وٱستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

وأصـله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعِيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثَل الذى أستوقد نارا أو كمثل صيب[(١)] » .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث ، وتجمع على أسميـة وسموات وسُمِيّ ، على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّــه الرياحُ والسُّــمِىُّ[(٢)] *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر ، سُمّى به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

دِيارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخــر[(٣)] :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

و يسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه ؛ قال[(٤)] :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فرَيّا وأمّا أرضُـــه فمُحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن ، وهو الغيم ؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات[(٥)] فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ماتقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما)

(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

واختلف العلمـاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : " مَلَك من الملائكة [موكل بالسحاب] (١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " . فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : اسم الصوت المسموع؛ وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجّعَــنِى الرعدُ والصــواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهــةِ النَّجِــدِ

وروى عن ابن عباس أنه قال: الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت . واختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن ابن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صـوت اصطكاك أجرام السـحاب . والبرق ماينقــدح من اصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وارتعد : اضطرب؛ ومنـه الحديث : " فجىءَ بهما تُرْعَدُ فَرائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصـله من البريق والضوء؛ ومنـه البُراق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الـبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال ابن أحمر :

يا جُلّ ما بَعُدَتْ عليـك بِلادُنا * وطِلابُنا فابْرُقْ بأرضِك وارْعُدِ

(١) زيادة من الترمذى .

وأَرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد؛ وأنكره الأصمعى . واحتج عليه بقول الكُمَيْت :

أبرِق وأرعِــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكُمَيت بحجة .

فائدة — روى ابن عباس قال : كنّا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينــة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يســمع الرعد : سبحان مَن يسبِّح الرعد بحمــده والملائكة من خيفته ، عُوفى ممــا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك ؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بَرَدة[1] قد أصابت أنف عمر فأثَّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة « الرعد »[2] إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللّهُمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يســمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأُصْبِــع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا؛ وهى مؤنثة . وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر ، فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَيْن؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الاسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنتــه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ : إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٥

والجمع . وأذانيّ : عظيم الأذنين . ونعجة أَذْناء ، وكَبْش آذَن . وأَذَّنت النعل وغيرَها تأذينا : إذا جعلت لها أُذُنًا . وأذّنت الصبيّ : عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصّواعق جمع صاعقة . قال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا ٱشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعـة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة (بالسين) . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد . وقرأ الحسن : من «الصواقع» (بتقديم القاف) ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ * تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصَّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغة تميم وبعض بنى ربيعـة . ويقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ »[1] . ويقال : صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا ؛ أى غُشِيَ عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا »[2] فأصعقه غيره . قال ٱبن مُقْبِل :

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَـواهِلُهُ[3]

وقوله تعـالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[4] أى مات . وشـبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مَثَلٌ لمـا يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مَثَلٌ لمـا يُخَوَّفون به . وقيل : مَثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لمـا فيه من الإشكال عليهم ، والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق . والصواعق

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩ (٣) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر ، وقيـل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله : أى قتلها صهيله . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

مَثَلٌ لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَر وحِذارَ بمعنًى؛ وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغفِرُ عَـوْراءَ الكريم ٱدّخارَه * وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّما (١)

وقال الفراء: هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت؛ ويَمات أيضا ؛ قال الراجز :

بُنَيَّتِي سَـيِّدَةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤْمَن أن تَماتى

فهو ميِّت وميْت، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون. والمُوَات (بالضم) : الموت . والمَوَات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوَات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد. والمَوَتان (بالتحريك): خلاف الحيوان؛ يقال : ٱشْترِ المَوَتانَ، ولا تشترِ الحيوان؛ أى ٱشتر الأرضين والدور، ولا تشترالرقيق والدواب. والمُوْتان (بالضم) : مَوْتٌ يقع فى الماشية؛ يقال : وقع فى المال مُوتان . وأماته الله وموَّته ؛ شُدِّد للمبالغة . وقال :

فَعُـرْوَةُ مات مَوْتًا مستريحًا * فهأنذا أُمَـوَّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها، فهى مُمِيت ومُمِيتة . قال أبو عبيد: وكذلك المرأة ، وجمعها مَماوِيت . قال ٱبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائى. وموت مائتٌ، كقولك: ليلٌ لائلٌ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به. والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْتَرسِلُ له ؛ قال رُؤْبة :

---

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم ٱحتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخارا له ، وإن سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

وزَبَدُ البحـــرِ له كَتِيت * واللّيـــل فـوق المـاءِ مُسْتَمِيت [1]

المستميت أيضـا : المستقتِل الذى لا يبـالى فى الحروب من الموت؛ وفى الحـديث : " أرى القـوم مُسْتَمِيتِين " وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعـترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقـله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض قُتل [2] بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر، أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تَيَقّنُوا * بما قد رأوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ [3] » . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكّنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [4] » . وقيل : «مُحِيطٌ بِالكافرين» أى عالم بهم . دليله : «وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [5]» . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ [6]» أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبـد البحـر له كتيت * تراه والحـوت له نئيت
كلاهما مغتمس مغتـوت * وكلكل الماء له مبيت
والليـل فوق الماء مستميت * يدفع عنـه جوفـه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لايشبع .   (٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة «مات» .   (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧   (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٦   (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٢٥

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤْبة :

* قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحاَ (١) *

مشتق من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال،و«أن» تَصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ (٢) يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : « وَمَا كِدْتُ آئِبًا (٣) » . ويجرى مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق ، فى كون خبرها بغير « أن » ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا (٤) يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ؛ والحال لا يكون معها « أن » ، فأعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمِّىَ الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلاً للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مَثَلاً للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرئ بهما. وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفًا،وهى اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم » . وقال النحاس: فى «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَف. وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وَثّاب: يخطِف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رجاء العُطارِدِى بفتح الياء وكسر الخـاء والطاء . ورُوِى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يِخِطّف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

(١) يمصح : يذهب و يدرس. (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠ (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فأبت إلى فَهْم وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

والسابعــة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف أبىّ بن كعب « يتخطف »، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ « يخِطف » بكسر الخاء والطاء فالأصــل عنده يختطف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فالتقى ساكنان فكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخــاء ألقى حركة التاء عليهــا . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فــلأن الألف فى اختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولايجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء « يَخْطِّف » . قال ابن مجــاهد : وأظنــه غلطا ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الخَطْفَةَ »(١) لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ جمع بَصَر،وهى حاسة الرؤية.والمعنى: تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تبهرهم . ومن جعل«البَرْق»مثلًا للتخويف فالمعنى أن خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم.

قوله تعــالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ « كلما» منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا» فهى موصولة والعامل فيه « مَشَــوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيــه « أضاء » ؛ لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرد محذوف ، التقــدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأفعــل بمعنًى ، كسَكَت وأسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء ســواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفــراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقــدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القــرآن وظهرت لهم الحجج أنِسُوا ومشَــوْا معه ، فإذا نزل من القرآن مايَعْمَوْنَ فيه ويَضِلون به أو يكلَّفونه «قاموا» ، أى ثبتوا على نفاقهم؛عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دِين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا فى نفاقهم ؛ عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهــذا قول حسن ، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ »(٢) . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتقى من

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر ، كأن تضيء عليــه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها ، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمــات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها . وروى عن آبن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ صـلى الله عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا : هذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية ؛ فلمـا نُكِب بأُحُد آرتدّوا وشكّوا، وهذا ضعيف . والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن آبن عباس، والمعنى يتناول الجميع .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تَمَنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام . والمعنى : ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهـم . وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا ، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان . وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا(1).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه . وأجمعت الأمة على تسمية الله تعـالى بالقدير، فهو سبحانه قـدير قادر مقتدر . والقدير أبلغ فى الوصف من القادر، قاله الزجاجىّ . وقال الهروىّ : والقدير والقادر بمعنًى واحد ؛ يقال : قَدَرت على الشيء أقـدِر قَدْراً وقَدَراً ومقـدِرة ومَقْدُرة وقُدْرَانا ؛ أى قُدْرة . والاقتدار على الشيء : القدرة عليه . فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قـدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم . فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه وآختياره . ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجـرى العادة ، وأنه غير مستبدّ بقدرته . وإنما خص هنـا تعالى صفته التى هى القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذكر فِعْلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك . والله أعلم .

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين . وقد تقدّمت الرواية فيها عن آبن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا .

(1) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أوّلها « يأيها الناس » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أوّلها « يأيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهــذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النــاس . وأما قولهما فى « يَـٰٓأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » فى قوله : « يأيهـا » حرف نداء . « أيٌّ » منادَى مفرد مبنىّ على الضم؛ لأنه منادى فى اللفظ، و « ها » للتنبيه . « الناسُ » مرفوع صفة لأى عنــد جماعة النحويين ؛ ما عدا المــازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه فى : يا هــذا الرجل . وقيــل : ضُمّت « أى » كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الأسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا . وقيل : لمــا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوْا فى الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف ، وأجروْا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، والتزموا رفعــه ؛ لأنه المقصود بالنــداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى؛ فأعلمه .

وآختُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما ــ الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليــه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثانى ــ أنه عام فى جميع النــاس؛ فيكون خطابه للؤمنين بآستدامة العبادة، وللكافرين بآبتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمْرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

قال طرفــة :

* وظيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنَسُّك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان : أحدهما — التقدير ؛ يقال : خَلَقتُ الأدِيم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع ؛ قال الشاعر (٢) :

وَلَأَنتَ تَفْرِى ما خَلَقتَ وبعـ * ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقتُ إلا فَرَيْتُ ، ولا وَعَدْتُ إلا وَفَيْتُ . الثانى : الإنشاء والاختراع والإبداع ؛ قال الله تعالى : « وتَخْلُقُونَ إِفْكًا (٣) ».

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم ؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة ؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقهم يميتهم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ابتلُوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذرأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهذا وما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله : « لعلّكم تَعْقِلون ، لعلّكم تَشْكُرون ، لعلّكم تَذَكَّرُون ، لعلّكم تَهْتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *
تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان فى السير ، إذا فعل هذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق (عن شرح المعلقات) .

(٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدّرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدّر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

الأول — أن « لعـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقّع إنما هو فى حيّز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : ٱفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عز وجل : « ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ »(١) قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . وٱختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب ٱستعملت « لعـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفّوا الحروبَ لعلّنا ＊ نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ＊ كلَمْعِ سَـرابٍ فى المَلا مُتَألِّقِ

المعنى : كُفّوا الحروب لنكُفّ، ولو كانت «لعل» هنا شكّا لم يوثقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث — أن تكون « لعل » بمعنى التعرّض للشىء ؛ كأنه قيل : ٱفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار . وهـذا من قول العرب : ٱتقاه بحقه إذا ٱستقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا ٱحمرّ البأس ٱتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه ＊ حتى ٱتّقتنى الخيلُ بٱبنى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ[(١)] بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ » وقوله : « وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى؛ ومنه قوله تعالى : « حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ[(٢)] قُرْآنًا عَرَبِيًّا » . وقوله : « وَجَعَلُوا[(٢)] لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » . « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا[(٢)] » أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ؛ كما قال الشاعر[(٣)] :

وقد جَعلتْ نفسِى تَطيبُ لِضَغْمةٍ * لضَغْمِهِما هَا يَقْـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الاثنين أربعةً * والواحد اثنين لـمّا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل واجتعل بمعنًى واحد؛ قال الشاعر[(٤)] :

ناط أمْرَ الضِّعافِ واجتعل الليـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيّةِ المـمْـدُودِ

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليهـا . وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها؛ لأن الجبال كالأوتاد؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ[(٥)] الْأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » . والبحار تركب إلى سائر منافعها؛ كما قال : « وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ[(٦)] » .

الثانيـــة ــ قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفًا .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(٣) هو مضرّس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ؛ فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . فجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٤) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيما كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقــوله الحق : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا »(١) . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقــد تقدّم القول فيه(٢) . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، و بنى على أهله — بِناء فيهما — أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأن الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبَّة ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ. و بنّى(مقصورا) شدّد للكثرة، وٱبتنى دارا و بَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛لأنها أجلد،وهى بٱلألف أشبه؛ فقلت: ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، وإن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . و يقال ثُمُر مثل خُشُب . و يقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام»(٣) إن شاء الله . وثمار السّياط : عُقَدُ أطرافها.

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات.﴿رِزْقًا﴾ طعاماً لكم، وعلفًا لدوابّكم ؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَـاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَـا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْـلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًـا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »(٤) . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى(٥) والحمد لله .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨ (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

فإن قيل : كيف أطلق آسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملّك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الآنتفاع ؛ فهى رزق .

الخامســـة — قلت: ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هـذا المعنى : " والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه". أخرجه مسلم. ويدخل فى معنى الآحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والماء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح (١) لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت عليّ بن أبي طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقِد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم آتخذوا الأرض بساطًا، وتُرابها فِراشا، وماءها طِيبا، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا، فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: «أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ» (٢) إن شاء الله تعالى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نَهْىٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ، واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

نحمَــدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيرِكما الفِــداء

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لبيد :

لكَيْلا يكون السَّنْدَرِىّ نَدِيدَتِى ٭ وأجعلَ أقواما عُمومًا عَماعِمَا (١)

وقال أبو عبيـدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعـول أوّل ، و « لله » فى موضع الثانى . الجوهرى : والنَّـدّ (بفتح النون) : التَّلّ المرتفع فى السماء . والنَّـدّ من الطيب ليس بعربىّ . ونَدّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادِّ » (٢) . ونَدّد به أى شهّره وسَمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن آبن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المـاء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهـم دون الأنداد . الثـانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر بآستعمال حجج العقول و إبطال التقليد . وقال آبن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد علمكم الذى هو نَفْىُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعـالى : وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ أى فى شـك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القـرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُـدُّوا ، فإنهم لمـا سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هـذا كلام الله ،

(١) السندرى : آبن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيـل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعـنى الشطر الثانى : وأجعل أقـواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١١ .

و إنا لفى شك منه ، فنزلت الآية . ووجه آتصالها بمـا قبلها أن الله سبحانه لمـا ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّـه ، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعـنى محمدا صلى الله عليه وسـلم . والعبد مأخوذ من التعبُّـد وهو التذلّل ، فسُمِّىَ المملوكُ ــ من جنس ما يفعله ــ عبدًا لتذلّله لمولاه ، قال طَرَفة :

إلى أن تحامتنِى العشيرة كلها * وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّدِ

أى المذلّل . قال بعضهـم : لمـا كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بهـا أشرف الخطط ، سَمَّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلـبى عند زهراءَ * يعـرفه السـامعُ والرائى
لاتَدْعُـنِى إلا بِيَا عبدَها * فإنه أشـرف أسمـائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجىء ، قاله آبن كَيْسان . وهو أمرُ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها(1) وفى إعجاز القرآن(2) ، فلا معنى للإعادة . و«مِن» ــ فى قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ــ زائدة ، كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى « مثله » عائد على القرآن عند الجمهـور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيـل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعـنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيـل : يعود على النبىّ صلى الله عليه وسـلم . المعنى : من بَشَرٍ أُمِّىّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمِن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتام ؛ لأن « وآدعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَآدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفَـرّاء : آلهتكم . وقال آبن كَيْسان : فإن قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، و إنما يكون الشهداء ليشهـدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهـدوه ، و إنما قيـل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْـلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(1) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (2) راجع ص ٦٩ ــ ٧٨ من هذا الجزء .

المعـنى آستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهـدوا ما تأتون به ؛ فيكون الرّدّ على الجميع أوكدَ فى الحجة عليهم .

قلت: هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد: معنى «وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» أى آدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمع شهيد؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق؛ وهو تقصير عن الغاية، و يكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس؛ قال:

إذا ما علا المـرء رام العـــلاء * ويقنـع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منــه فعل؛ و بعضهم يقول منــه : دان يَدُون دَوْنًا . و يقال : هـذا دُون ذاك؛ أى أقرب منه . و يقال فى الإغراء بالشيء : دُونَكَهُ . قالت تَميم للحجاج : أَقْبِرنا(1) صالِحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة؛ لقولهم فى آية أخرى : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا(2) مِثْلَ هَذَا». والصدق : خلاف الكذب، وقد صَدَق فى الحديث . والصَّدْق : الصُّلب من الرماح . و يقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق . و يقال : رجل صِدْقٍ؛ كما يقال: نِعْمَ الرجل. والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والودّ .

قوله تعـالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تامّ . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وآدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(1) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، و يرى رأى الخوارج . (2) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ ، فدخلت على « لم » كما تدخل على المـاضى؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى المـاضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ[1] *

وفى حديث ٱبن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه: فقيل لى «لن تُرَعْ». هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ٱبن كَيْسان: «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر، وأنه أساطير الأوّلين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا»؛ أى ٱتقوا النار بتصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها . ويقال: إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه: تَقَى يَتْقِى، مثل قَضَى يقضى . «النارَ» مفعولة. «التى» من نعتها. وفيها ثلاث لغات: التى واللَّتِ (بكسر التاء) واللَّتْ (بإسكانها). وهى ٱسم مُبْهَم للؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا . اللّتان واللّتا (بحذف النون) واللّتانّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات:

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هــذا الثناء فإن تَسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحيــة كانوا يحيون بهـا الملوك . والصفد : العطاء ؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول: هــذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى، فلم أمدحك متعرضا لعطائك، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

اللَّاتِي ، وهي لغة القرآن . واللَّاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللَّوَاتِي . واللَّوَاتِ (بلا ياء)؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللَّواتي واللَّتي واللَّاتِي * زعمن أن قد كَبِرَتْ لِداتِي

واللَّـوا (بإسقاط التاء) ؛ هـذا ما حكاه الجوهري . وزاد ابن الشجري : اللَّائي (بالهمز وإثبات الياء) . واللَّاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللَّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمـع قلت في اللَّاتي : اللَّواتي . وفي اللَّائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير الَّتي اللُّتَيَّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز[1] :

بعد اللُّتَيَّا واللَّتَيَّا والَّتِي * إذا عَلَتْهَا أنفسٌ تَرَدَّتِ

وبعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النـداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من أجلكِ يا الَّتي تَيَّمْتِ قلبي * وأنت بخيـلةٌ بالـوُدِّ عنّي

ويقال : وقع فلان في اللُّتَيَّا والَّتي ؛ وهما اسمان من أسماء الداهية . والوقود (بالفتح): الحطب . وبالضم : التوقد . و «الناس» عموم ، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبًا لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة ، كثرة الدخان، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حرّها إذا حَمِيَت . وليس في قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجنّ والشياطين فيها . وقيل: المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ[2] » أي حطب جهنم . وعليـه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار؛ وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

(١) هو العجاج . وصف دواهي شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمشرف الذي أشرفت عليه . ومعنى تردت : سقطت هاوية وهلكت .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقـد جاء الحديث عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذّبه الله فى الآخرة بالنار . الثانى — أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَـدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصّةً . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح (١) — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ. «النّاسُ» خبره . «والحجارةُ» عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : «وُقُودها» (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها النّاسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقَدًا وَقِدَةً [ووَقِيدًا ووَقْدًا] (٢) ووَقَدَانًا ، أى تَوَقّدت . وأوْقدتها أنا واستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثلُ التّوَقُّد ، والموضع مَوْقِد ؛ مثلُ مجلِس ، والنـار مُوقَدة . والوَقْدة : شـدّة الحرّ ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» [بفتح الواو] (٣) لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر. قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر ، قال : كما أن الوَضُوء الماءُ ، والوُضُوء المصدر.

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة ، على ما يأتى. وفيه دليل على ما يقوله أهـل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافًا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى. روى مسلم عن عبد الله (٤) بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وَجْبَةً (٥) ؛

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعير للنار .
(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .
(٤) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له ، كالهدّة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تدرون ما هذا " قال قلنا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا حَجَر رُمِىَ به فى النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِى فى النار الآن حتى آنتهى إلى قعرها " .
وروى البخاريّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آحتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابى أعذِّب بِكِ من أشاء وقال لهذه أنتِ رَحْمَتِي أرْحَمُ بِكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ". وأخرجه مسلم بمعناه[(١)] . يقال : آحتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقدم حديث آبن مسعود[(٢)] ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أُرِيهما فى صلاة الكسوف ، ورآهما أيضا فى إسرائه ودخل الجنة ؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ[(٣)] » فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن الماضى لا يكون حالا إلا مع قد ؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة » . ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ[(٤)] » . وقال السِّجِسْتانى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صلة « الّتِي » ؛ كما قال فى آل عمران : « وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ[(٥)] » . آبن الأنبارِيّ : وهذا غلط ؛ لأن التى فى سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدَّتْ » .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٥)

(١) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخارى بمعناه .
(٢) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لمـا ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشـير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهي ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل في السرور مقيّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيّد أيضا . ولا يُستعمل في الغمّ والشرّ إلّا مُقَيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته و بَشّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر وآستبشر . و بَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : ما يُعطاه المُبَشَّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشَّرَني من عبيدي بكذا فهو حُرّ ؛ فبشّره واحد من عبيـده فأ كثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثاني . وآختلفـوا إذا قال : مَن أخبرني من عبيدي بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثاني مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعيّ : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلَّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد آبن الحسن بين قـوله : أخبرني ، أو حَدّثني ؛ فقـال : إذا قال الرجل أيّ غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نِيّةَ له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . و إن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أيّ غلام أخبرني فهـو حُرٌّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتَقوا ؛ و إن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : و إذا قال أيّ غلام لي حَدّثني ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ رَدّ على من يقول : إن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصـالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ؛ والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشّر الذين آمنوا بأنّ لهم، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمــل الفعل . وقال الكسائى و جمــاعة من البصريين : « أنّ » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب ٱسم « أنّ » ، « وأنّ » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين؛ و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنِين والجنة .

﴿ تَجْرِي ﴾ فى موضع النعت لجنات، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر، لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ ٱلْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار؛ فنُسب الجرى إلى الأنهار تَوَسُّعًا، و إنما يجرى المــاء وحده فحذف آختصارا، كما قال تعالى : «وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ»(١) أى أهلها . وقال الشاعر(٢) :

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت * وٱستبّ بعدك ياكليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس؛ فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس آبن الخَطِيم :

مَلَكْتُ(٣) بها كَفِّى فأنهرت فَتْقَها * يرى قائم من دونهــا ما وراءَها

أى وسّعتها؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم :"ما أنهر الدّمَ وذُكِر آسم الله عليه فَكُلُوهُ" . معناه : ما وَسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُرٌ وأنهار . ونَهْرٌ نَهِر : كثير المــاء؛ قال أبو ذُؤيب :

أقامت به فٱبتنتْ خَيْمَةً * على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِــرْ(٤)

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٢) هو مهلهل أخو كليب . (٣) ملكت : أى شددت وقويت .

(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : « كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره، وقد تقدّم القول فى الرزق(١) . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا، وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزِقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنهـا يشبه لون ثمـار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيـل: « مِن قبـلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمـار فى أوّل النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزقنا مِن قبل؛ يعنى أُطْعِمْنا فى أوّل النهار ؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت.وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء. وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة، وفى الثانية للخدام .

﴿بِهِ مُتَشَابِهًـا﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمـرَ الدنيا و يباينه فى جُلّ الصفات . ٱبن عباس : هذا على وجه التعجُّب، وليس فى الدنيا شىء ممـا فى الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجّبوا لمـا رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه، كقوله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه ؛لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ اِبتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج.والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال: زوجة، وأنشد الفَرَزْدَق :

و إن الذى يَسْعَى لِيُفْسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا(٢)

---

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

وقال عمّار بن ياسر في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم. ذكره البخاري، واختاره الكسائي.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهَّرةٌ في اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات. ذكر عبد الرازق قال أخبرني الثَّوْرِيّ عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد: «مطهرة» قال: لا يَبُلْنَ ولا يَتَغَوَّطْنَ ولا يَلِدْن ولا يَحِضْنَ ولا يمنين ولا يَبْصُقْنَ. وقد أتينا على هـذا كلّه في وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة. والحمد لله.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ «هم» مبتدأ. «خالدون» خبره، والظرف مُلْغًى. ويجـوز في غير القرآن نصب خالدين على الحـال. والخلود: البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد. وقد تستعمل مجازًا فيما يطول؛ ومنه قولهم في الدعاء: خَلّد الله مُلْكه، أي طوّله. قال زُهَيْر:

ألَا لا أرى على الحوادث باقيَا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيَا

وأمّا الذي في الآية فهو أبديّ حقيقةً.

قوله تعـالى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٦)

قوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ قال ابن عبـاس في رواية أبي صـالح: لمّـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنافقين: يعني «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» وقوله: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ» قالوا: الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال؛ فأنزل الله هذه الآية. وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال: لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال: «وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ»[1] وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٧

بفعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيتَ حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القـرآن على محمد ، أيّ شيء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لمـا ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضربَ للشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ، عينه ولامه حرفا علة ؛ أُعلت اللام منه بأن آستثقلت الضمة على الياء فسكنت . وآسم الفاعل على هـذا : مستحيٍ ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يستحِي» بكسر الحاء و ياء واحدة ساكنة ؛ ورُوى عن آبن كَثِير، وهي لغة تميم و بكر آبن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم آستثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ وآسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمـع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . وآختلف المتأوّلون فى معنى «يستحيي» فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ؛ ورجحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »[1] بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الآستحياء الآنقباض عن الشيء والآمتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح ؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : جاءت أمّ سُلَيم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ «يضرب» معناه يبيّن ، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف من . « مثلًا » منصوب بيضرب . «بَعُوضةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأوّل — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مثلًا » .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مَثَلًا» ، و «بعوضةً» نعت لمـا ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليـل ؛ قاله الفرّاء والزّجاج وثعلب .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلًا مَا بين بعوضــة ؛ فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهــذا قول الكسائى والفرّاء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحْسَنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصِـلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن ، فلما أسقط « بين » نصب .

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل ، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى .

وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤْبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغـة تميم . قال أبو الفتـح : ووجه ذلك أن « ما » آسم بمنزلة الذى ، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهـم : « تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى » ؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والآسم معه أطول . ويقال : إن معنى ضربت له مثـلا ، مَثَّلت له مَثَلًا . وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد ، وعلى مثـال واحد ونوع واحد ؛ والضَّرْبُ النَّوْع . والبَعُوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَعَ و بَعَضَ بمعنًى ، وقد بعَّضته تبعيضًا ، أى جزّأته فتبعّض . والبَعُوض : البَـقّ[1] ، الواحدة بعوضة ؛ سُمِّيت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَـا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ «ما» الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها ؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهــذا كقولك فى الكلام : أتراه قصــيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ؛ أى هو أقصر ممـا ترى . وقال قتادة وآبن جُرَيج : المعنى فى الكِبَر . والضمير فى «أنّه» عائد على المَثَل ؛ أى إن المَثَل حق .

(١) قال الدميرى : « هو وهم » . وذكر البعوض بأوصافها . و يدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنـه صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ..." الحديث .

والحق خلاف الباطل . والحـق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتِي ، أى حَقّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم وبنى عامر فى « أمّا » أيمَـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيمَـا بالعشِىّ فيَخْصَـرُ (١)

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ آختلف النحويون فى « ماذا » ، فقيل : هى بمنزلة آسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«أراد» . قال آبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » آسم تام فى موضع رفع بالآبتداء ، و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الآبتـداء ، ويكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الآستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثَعْلَب . وقال آبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة وإلى هُدًى . وقيـل : بل هو خبر من الله عزّ وجلّ ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُـدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ أى يوفّق ويخْذل ؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِۦ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سَمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ أنه من قول الله تعالى. و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقــدير : وما يُضِــل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق فى علمه أنه لا يهديهــم . ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمامِ الكلام . وقال نَوْف البِكالِيّ : قال عزير فيما ينـاجى ربّه عزّ وجلّ : إلهى تخلق خلقا فتُضل من تشاء وتهـدى من تشاء . قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا ! لتُعرِضَنّ عن هذا أو لأمْحُونّك من النبوّة، (١) إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون . والضلال أصله الهلاك؛ يقال منــه : ضلّ المـاءُ فى اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى : « أئذا ضَلَلْنَا فى ٱلأَرْضِ » (٢) وقــد تقدّم فى الفاتحة (٣) .

والفِسْق أصــله فى كلام العرب الخروج عن الشيء؛ يقال : فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها . والفُوَيْسقة : الفأرة؛ وفى الحديث : " خمسٌ فواسِــقُ يُقتلْنَ فى الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُور والحُدَيّا " . روته عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم. وفى رواية "العقرب" مكان "الحية" . فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا؛ أى فَجَر. فأمّا قوله تعالى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم ٱبن الأعرابيّ أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهليــة ولا فى شــعرهم فاسق (٤) . قال : وهــذا عجب ، وهو كلام عربيّ حكاه عنــه ٱبن فارس والجوهرى .

قلت : قــد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له لمـا تكلم على معنى الفســق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ فى نَجْــدٍ وغَوْرًا (٥) غائرا * فواســقًا عن قَصْــدها جَوائرا

(١) فى نسخة من الأصل: أعرض عن هذا وإلا محوتك من النبوّة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١
(٣) راجع ص ١٥٠ (٤) أى بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية .
(٥) غورا ، منصوب بفعل محذوف؛ أى ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

والفِسّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ و ياخُبَثُ، يريد : يأيها الفاسق، و يأيها الخبيثِ . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ « الَّذين » فى موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ ﴾ النَّقض : إفساد ما أبرمته من بنـاء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة . ما نُقض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقيضة فى الشِّعر: ما يُنْقَض به . والنِّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هــذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين ٱستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه،وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته،ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألســنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيــل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيــل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبيّين ومن ٱتبعهم ألا يكفروا بالنبيّ صــلى الله عليــه وسلم . ودليــل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ»[2] إلى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعــدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكّد باليمين، مِفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهي الشدّة في العقـد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها ــ والمياثق والمياثيق أيضا؛ وأنشد ابن الأعرابي :

حِمىً لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ المياثِق[1]

والمَوْثق : المِيثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القطع معروف ، والمصدر ــ في الرَّحِم ــ القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبـل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ : إذا قلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ : أي انبهار[2] .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ﴾ « ما » في موضع نصب بـ « يَقْطَعُون » . و « أَنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » وإن شئت من الهاء في « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أي كراهة أن يوصـل . واختلف ما الشيء الذي أُمِر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهي عامة في كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يعبـدون غير الله تعـالى ويجورون في الأفعال ، إذ هي بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

(١) في اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائي .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء . وقيل انقطاعه .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقدّم(١) . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان ، كان فى ميزان أو غيره ؛ قال جَرير :

إن سَليطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قَومٍ خُلِقوا أقِنّهْ(٢)

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسَرت الشىء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعـــة — فى هـذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهـد جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده . وقـد قال : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ(٣) » وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه(٤) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى اسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنية على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لها الفتح لخفته ؛ أى هـؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيـل : كيف يجوز أن يكون هـذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليـه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقـد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الآستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطىّ : وبّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية.

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقـد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم، ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبوحاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . وآختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحيـاة للإنسان ؟ فقال آبن عباس وآبن مسعود : أى كنتم أمواتا معـدومين قبل أن تُخلقوا فأحيا كم — أى خلقكم — ثم يميتكم عنـد آنقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال آبن عطية : وهـذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا مَحيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِىَ عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبـر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصـلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحيا كم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة، ثم يميتكم فى القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات. وقد قيل: إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات. وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار ، لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَوْن ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشفاعة فجيء بهم ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون في حَمِيل السَّيْل ». فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية(1) . أخرجه مسلم .

قلت : فقوله "فأماتهم الله" حقيقة في الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريمًا لهم . وقيل : يجوز أن يكون " أماتهم " عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتًا على الحقيقة؛ والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا، وإنما هو على الحقيقة، ومثله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » على ما يأتي بيانه(2) إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم ، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ(3) » فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع . و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمَر وٱبن أبي إسحاق ومجاهد وٱبن مُحَيْصِن وسلام ٱبن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(1) الذي في صحيح مسلم : « ... قد كان بالبادية » . والضبائر : هم الجماعات في تفرقة ، واحدتها ضبارة ، مثل عمارة وعمائر ، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت في الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهي الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجيء به السيل من الغُثاء .

(2) راجع جـ ٦ ص ١٨ (3) راجع جـ ١١ ص ٣٤٨

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه ٱخترع وأوْجَد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو » ل فحِيلَتى فيـه قليلَهْ

وقد تقدّم[1] هذا المعنى . وقال ٱبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والاعتبار .

قلت : وهـذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـة — ٱستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها — كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰواتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ»[2] الآية — حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلق عبثًا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لٱستغنائه بذاته ، فهى راجعة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتها ، أو فى ٱجتنابها لنُختبَر بذلك ، أو فى ٱعتبارنا بها . ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين. ثم هو معارَض بمـا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما مِن فِعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفسه ، ولا مُعيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهـذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المـالكية والصَّيرفىُّ فى هـذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .
(٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاءَ أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، و إنما حَظّه تَعَرُّف الأمور على ما هى عليــه . قال آبن عطية : وحكى آبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أو لها تعلّق به ، أو لهـا حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغى أن يُعتمد على هذا ، و يغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـــة — الصحيح فى معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآعتبار. يدلّ عليه ما قبـله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والآســتواء إلى السماء وتسويتها؛ أى الذى قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السّموات والأرض،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الآنتفاع؛ أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالآنتفاع الآعتبار لمَـا ذكرنا . فإن قيل : وأى آعتبار فى العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النـار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الآعتبار . قال آبن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقوّوا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد ، ولا تستكثر كثير برّه على قليل عملك ؛ فقد آبتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسأله أن يُعطِيَه ؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "ما عندى شىء ولكن آبتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرِف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : تخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ؛ وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السمواتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنه» . فهذه الأشياء كلها مسخّرة للآدمىّ قطعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : «وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سبقتْ رحمتى غضبى يا بن آدم أَنْفِق أُنْفِق عليك يَمِينُ الله ملأى سَحًّا[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُمّ أَعْطِ مُنفقا خَلَفًا و يقول الآخر اللّهُمّ أَعطِ مُمْسكًا تَلَفًا". وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن آستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وآجترأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وآنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "آنْفَحِى أو آنْضَحِى[4] أو أنفق ولا تُحصِى فيُحصِىَ الله عليكِ ولا تُوعِى فيُوعِىَ[5] عليكِ" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٠٧ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٠٦ (٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء .

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شىء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : " مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليكِ " .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلوّ على الشىء ؛ قال الله تعالى: «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـــم ماء بفَيْفاء قَفْـــرة * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا ، واستوت الشمس على رأسى واستوت الطير على قِمّة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـــذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى »(١) قال مالك : الاســـتواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : ان يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شبابه وقوّته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان(٢) فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى إلى السماء صعِد. وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـــرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـــد بن علىّ بن الحسين : قوله :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ ســواء ، على معنى ... الخ » وبها لا يستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

« آستوى » بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز فى صفات الله تعالى . ولفظة « ثم » تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن آبن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبيّ، والكلبيّ ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وآبن كَيسان فى قوله « ثُمَّ آسْتَوَى إِلَى السَّماءِ » : قصد إليها ، أى بخلقه وآختراعه ؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد؛ وآختاره الطبرى . ويُذكر عن أبى العالية الرّياحىّ فى هذه الآية أنه يقال : آستوى بمعنى أنه آرتفع . قال البيهقى : ومراده من ذلك — والله أعلم — آرتفاع أمره ، وهو بخار المـاء الذى وقع منـه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال آبن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى آستولى ؛ كما قال الشاعر[1] :

قد آستَوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْراق

قال آبن عطية : وهذا إنما يجيء فى قوله تعالى : « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى » .

قلت : قد تقدّم فى قول الفرّاء علىّ و إلىّ بمعنًى . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى سورة « الأعراف[2] » إن شاء الله تعالى . والقاعدة فى هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســـة — يظهر من هــذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبــل السماء ؛ وكذلك فى « حم السجدة[3] » . وقال فى النازعات : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا[4] » فوصف خلقها ؛ ثم قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . فكأن السماء على هــذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعـالى : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ[5] » وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أوّلا ؛ حكاه عنه الطبرىّ . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس المـاء الذى كان عرشه عليه، فجعله أرضا وثار منه دخان فآرتفع ؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات، ثم دحا[6] الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوّة .

---

(١) هو الأخطل كما فى شرح القاموس .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ .
(٦) دحا الشيء : بسطه .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أوّلا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم آستوى إلى السماء وهى دخان فسوّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما(١) يدل على أن الدخان خلق أوّلا قبل الأرض ما رواه السُّدّى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن آبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن آبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فآرتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والآثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ »(٢) — والحوت فى الماء و [الماء](٣) على صفاة(٤)، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرك الحوت فآضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى : « وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ »(٥) وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ »(٦) يقول : من سأل فهكذا الأمر، « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدّمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى؛ فجل من له العصمة.

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣.

(٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه.

(٤) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس.

(٥) راجع جـ ١٠ ص ٩٠.

(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢.

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زَيّن السماء الدنيـا بالكواكب، بجعلها زِينة وحِفْظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(١) وذكر القصة فى خلق آدم عليه السـلام ؛ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شيء «القلم» فقال له آكتب . فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . بجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بخار المـاء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هـذه الرواية خلق الأرض قبـل آرتفاع بخار المـاء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أَوْلَى ؛ لقوله تعالى: « وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »(٢) والله أعلم بما فعل؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبـار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبـه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعـــة — أصل خلق الأشياء كلّها من المـاء لمـا رواه آبن ماجه فى سننه، وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتـك طابت نفسى وقرت عينى ، أنبئْنى عن كل شيء . قال: "كل شيء خُلق من المـاء" فقلت : أخبرنى عن

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٢

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السّــلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام". قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة : « أنبئني عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خُلق من المــاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المـاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا. قال البيهقي : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المــاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فِممّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدري . قال : ثم أتى الرجل عبـدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبـد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ »(١) فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهــل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أي من خلقه وإبداعه وٱختراعه . خلق المـاء أولا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ.

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع . ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »(٢) وقد ٱختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهنّ » أي في غلظهن

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

وما بينهن . وقيل : هي سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الدّاوُدِيّ . والصحيح الأول ، وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شبرا من الأرض ظُلْمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين" وعن عائشة رضي الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبي هريرة : "لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة] (1) " . وروى النّسائي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمني شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إلٰه إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إلٰه إلا الله قال لا إلٰه إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّني به قال يا موسى لو أن السموات السّبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كِفّة ولا إلٰه إلا الله في كِفّة مالت بهنّ لا إلٰه إلا الله " . وروى الترمذيّ عن أبي هريرة قال : بينما نبيّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هذا " فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا العَنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع (2) سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم وبينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم وبينها [مسيرة] (3) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق (3) ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة] (3) خمسمائة سنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذي تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(1) الزيادة من صحيح مسلم . (2) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (3) زيادة عن صحيح الترمذي .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على عِلْم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه (١)] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وآسمه مسلم — عن آبن عباس أنه قال : « اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيّكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن آبن عباس صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضُّحا عليه دليلا (٢) ، والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ آبتداء وخبر . « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نجد يميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى فسوّى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهنّ سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : آنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان آستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنّثة ؛ مثل عَنان ، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإمّا على أنها مفرد آسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

(١) زيادة من صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

العــاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شىء؛ فوجب أن يكون عالمـا بكل شىء ؛ وقد قال: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية وقالت الجَهْمِيّة : عالم بعـلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزَّيْغ والضلالات؛ والردّ على هؤلاء فى كتب الديانات وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال: « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »(٢) ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا(٣) إِلَّا هُوَ » الآية . وسندلّ على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(٤) إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالُون عن نافـع بإسكان الهاء من: هو وهى، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمّ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمّ وزاد أبو عَوْن عن الحُلْوانىّ عن قالُون إسكان الهاء من «أَنْ يُمِلَّ هُوَ» ، والباقون بالتحريك.

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مســـألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ و إذا حرفا توقيت ؛ فإذ للـماضى ، و إذا للستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقل المُبَرّد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا، و إذ قلت . و إذا جاء « إذا » مع المـاضى كان معناه مستقبلا؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ١٨ص٢١٤ (٢) راجع جـ٦ص١٩ (٣) راجع جـ٧ص١ (٤) راجع جـ٢ص٣٠١

أى يجىء . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيـدة : « إذ » زائدة ؛ والتقـدير : وقال ربك ؛ وٱستشهد بقول الأسْوَد بن يَعْفُر :

فإذْ(١) وذلك لا مَهَـاهَ لِذِكْرِه * والدهرُ يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن «إذ» ٱسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا ٱجترام من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عز وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وٱبتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّـــة مَن يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وٱذكر إذ قال . وقيـل : هو مردود إلى قوله تعالى: « ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعـالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى ٱرتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم(٢) بيانه .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك . قال ٱبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَـل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لأَكَ إذا أرسـل . والأَلُوكة والمَـألَكة والمَـأْلُكة : الرسالة ؛ قال لَبِيد :

وغلامٍ أرســـلَتْهُ أمُّه * بألُوكٍ فبذلْنا ما سأَلْ

وقال آخر(٣) :

أبلِــغِ النُّعمانَ عنّى مَأْلُـكًا * إنّنى قدطال حبسى وٱنتظارِى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدى بن زيد ؛ كما فى اللسان مادّة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إنى»

ويقال : أَلِكْنِي أى أرسلنى ؛ فأصله على هــذا مَأْلَك، الهمزة فاء الفعل فإنهــم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصــله مَلْأَك من مَلَك يملِك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن آبن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشــعر على الأصل؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسِيٍّ ولكن لَمَــلْأَكٍ　＊　تنزّل من جَوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل . لا آشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع؛ ومثله الصّلادمة . والصّلادم : الخيل الشّداد، واحدها صِلْدِم. وقيل : هى للمبالغة، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لآستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبـادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهــم ؛ فقال عز وجل : « آسجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى آبن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمِّيت أمّ القرى، قال : وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام . و « خليفة » يكون بمعنى فاعل؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِىَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلف؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين؛ هذا هو المعروف، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»[1] إن شاء الله. و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة، إلا ما رُوِىَ عن زيد بن علىّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف. والمعنىّ بالخليفة هنا — فى قول آبن مسعود وآبن عباس وجميع أهل التأويل — آدم عليه السلام، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أوّل رسول إلى الأرض؛ كما فى حديث أبى ذرّ، قال قلت: يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »(١) . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدّم ولحم الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعـــة ـــ هذه الآية أصلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصمّ(٢) حيث كان عن الشريعة أصمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفَىء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولّى ذلك . ودليلُنا قولُ الله تعالى : « إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى : « يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد ٱختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصـار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش . ورووا لهم الخـبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لـمـا ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنهـا ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لـمـا حضرته الوفاة عهـد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) راجع جـ ٤ ص ٢ (٢) الأصم : من كبار المعتزلة وٱسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك ، فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدّين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبّح ولا يُحسّن ؛ و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســة — إذا سُلّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة ٱختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : ٱختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للاختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الاجتهاد طريق أيضا إليه ، وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأى والاجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، و أبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم ٱختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعةَ إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ و إذا وجب العلم به لم يَخْل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو ٱستدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة، فبطلت هـذه الدعوى، و بطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به. وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأيّ وجه كان، وجب إثبات إمامة أبي بكر والعباس؛ لأن لكل واحد منهما قومًا ينقلون النّص صريحا في إمامته؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص في وقت واحد — على ما يأتي بيانه — كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنص من الآخر. وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد. فإن تعسّف متعسّف وادّعى التواتر والعلم الضروري بالنّص فينبغي أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم في النّص على أبي بكر وبأخبار في ذلك كثيرة تقوم أيضا في جملتها مقام النص؛ ثم لا شك في تصميم مَن عدا الإماميّة على نفي النّص؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير. والعلم الضروري لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفي الإماميــة؛ ولو جاز ردّ الضروري في ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغداد والصين الأقصى وغيرهما.

السادســة — في ردّ الأحاديث التي احتجّ بها الإمامية في النّص على عليّ رضي الله عنه، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وارتدّت، وخالفت أمر الرسول عنادا؛ منها قوله عليه السلام: "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه اللّهُمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه". قالوا: والمَوْلى في اللغة بمعنى أَوْلَى؛ فلما قال: "فعليّ مولاه" بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله «مولى» أنه أحق وأولى. فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعليّ: "أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي". قالوا: ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركا له في النبوّة ولم يكن ذلك لعليّ، وكان أخًا له ولم يكن ذلك لعلي، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتي ذكره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر، وقد آختلف في صحته، وقد طعن فيه أبو داود السّجستاني وأبو حاتم الرازي، وآستدلا على بطلانه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالِيَّ دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه" لكان أحد الخبرين كذباً .

جواب ثان — وهو أن الخبر و إن كان صحيحًا رواه ثِقةٌ عن ثِقَةٍ فليس فيه ما يدل على إمامته ، و إنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الوليّ ، فيكون معنى الخبر : مَن كنت وَلِيّه فعليّ وَلِيّه؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وَلِيّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر عليّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعليّ .

جواب ثالث — وهو أن هـذا الخبر ورَد على سبب، وذلك أن أسامة وعليًّا آختصما ، فقال عليّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لستُ مولاك، بل أنا مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال : "مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه" .

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمـا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها : النساء سواها كثير . شقّ ذلك عليها، فوجد أهـل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردًّا لقولهم ، وتكذيباً لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعليّ عليه السلام . وأما الحديث الثاني فلا خلاف أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتي من بيان وفاتيهما في سورة « المـائدة »(١) — وما كان خليفةً بعده و إنما كان الخليفة يوشع بن نون ؛ فلو أراد بقوله : "أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى" الخلافة لقال : أنت مني بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هـذا دلّ على أنه لم يُرِد هذا، و إنمـا أراد أني آستخلفتك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمـا خرج إلى مناجاة

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢١

ربه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا خرج الى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى". و إذا ثبت أنه أراد الآستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاةٍ غزاها رجلًا من أصحابه ، منهم : آبن أمّ مَكْتُوم، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحِد . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوِى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوِى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء، وخبر علىّ ورد على سبب، فوجب أن يكون أبو بكر أولى منه بالإمامة، والله أعلم .

السابعـــة — وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق، أحدها : النص، وقد تقدّم الخلاف فيه، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى و بكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق، أو على جماعة كما فعل عمر، وهو الطريق الثانى؛ و يكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم [فى تعيين(١) عثمان بن عفان رضى الله عنه] . الطريق الثالث : إجماع أهل الحَلّ والعَقْد؛ وذلك أن الجماعة فى مصرٍ من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليـه ورَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبى .

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لمـا فى إقامة إمامين من آختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يُغِل(١) عليهنّ قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البَيعة لأبى بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من آنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَعٌ عليه .

التاســـعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، و إذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشِــه . وقال آبنُ خُوَيْزِمَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العــاشرة — وآختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا آحتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّعٍ(٢) أنه عُقِد له سرًّا ، و يؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال بآعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى فى ستة(٣) دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يغل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق . (٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — المسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوّام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

وبينه أن شهادة الآثنين معتــبرة ، وما زاد مختلَف فيــه ولم يدل عليه الدليــل فيجب ألا يعتـــبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأوّل — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الأئمة من قريش " . وقد آختلف فى هذا .

الثـانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الآستفتاء فى الحوادث ، وهذا مُتَّفَق عليه .

الثـالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثُّغور وحماية البيضة (١) وردْع الأمة والآنتقام من الظالم والأخذ للظلوم .

الرابــع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحــدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل على هــذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهــم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه ؛ ولأنه هو الذى يولى القضــاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالمـا بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن آختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لايجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : " أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

---

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

بمن تستشفعون " . وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »(١) فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدل على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه ٱختاره، وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصب ثم فَسَق بعد ٱنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم ؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الابتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا ينخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شىء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : " وألا نُنازِع الأمر أهله [قال](٢) إلا أن تروْا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان " .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٦   (٢) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . و «بواحا» أى جهارا ؛ من باح بالشىء يبوح به إذا أعلنه .

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرِفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئ ومَن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِيَ وتابع — قالوا: يا رسول الله ألّا نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا" . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ آختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه آنعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب(1) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما آتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا آنعقدت الإمامة بآتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّة مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البَيعة لعُذْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين. وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقُتِل الآخر، وآختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه ومَوْته . والأول أظهر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما" . رواه أبو سعيد الخُدْرِيّ أخرجه مسلم .

---

(1) فى بعض الأصول : «الغير» .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرة قلبه فلْيُطعه إن آستطاع فإن جاء آخر ينازعه فآضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا؛ ومن حديث عَرْفجة : " فآضربوه بالسيف كائنا من كان " . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجىّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجىّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجىّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل ، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرف العالَم؛ ثم قالوا : لو آتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويج وَلِيَّيْن آمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف (١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا آثنين فى بلدَين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه؛ ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

لمـا جاز بعثة نبيّين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولَى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منـع الشرع منه ؛ لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه و إنما ادّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما، ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقـل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمْع الإجماعُ ، وقد وُجد على المنع .

قوله تعـالى : ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله : «لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ فقيل : المعنى أنهم لمـا سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعـالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : « إِنِّىٓ أَعْلَمُ » وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العِزّة. فجاء قولهم: «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الاستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقال ٱبن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من ٱستخلاف الله من يعصيه أو من عِصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك، و إمّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الاستخلاف والعصيان. وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة في قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفي الكلام حذف على مذهبه ؛ والمعنى إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذي أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأوّل أيضا حسن جدا، لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسن، فتأمله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله : "كيف تركتم عبادي" — على ما ثبت في صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، وإظهار لما سبق في معلومه إذ قال لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيها ﴾ «مَن» في موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثاني يقوم مقامه «فيها». «يُفسد» على اللفظ، ويجوز في غير القرآن يفسدون على المعنى. وفي التنزيل: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى. ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ : « وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ» بالنصب ، يجعله جواب الاستفهام بالواو ، كما قال (١) :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بيني * وبينكمُ المـــودّةُ والإخاءُ

والسَّـفْكُ : الصّب . سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكًا : صببتـه ، وكذلك الدمع ؛ حكاه آبن فارس والجوهري . والسـفّاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدوي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم ، وقـد يستعمل في نثر الكلام ؛ يقال سـفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْيٌ . وقيـل : دَمَيٌ ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منـه ، والمحذوف منـه ياء وقد نُطق به على الأصـل ؛ قال الشاعر :

فـــلو أنّا على حجـر ذُبِحنـا * جرَى الدّميـان بالخبر اليقين

---

(١) القائل هو الحطيئة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزّهك عمّـا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعْشَى بنى ثَعْلبة :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمـةَ الفاخرِ

أى براءة من عَلْقَمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء " . وهو مشتق من السّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »(١) فالمسبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»(٢)، ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى سا كنان .

مسـئلة : وآختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة، فقال آبن مسعود وآبن عباس : تسبيحهم صلاتهم؛ ومنه قول الله تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»(٣) أى المُصَلّين . وقيل: تسبيحهم رفع الصوت بالذكر، قاله المفضّل؛ وآستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلٰهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا * سَبَحَ(٤) الحَجيج وكبّروا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله؛ على عُرفه فى اللغة؛ وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما آصطفى الله لملائكته [أو لعباده](٥) سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقى .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٤١ (٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ (٤) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(٥) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم (١) . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» اعتراضا بين الكلامين، كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم اعترضوا على جهة التسليم ؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعــالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهــد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفســنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهــم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصــلّى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح ؛ فإن الصــلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : " سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والرُّوح " . روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : « ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ » (٢) أى المطهّرة . وقال : «ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوس» (٣) يعنى الطاهر؛ ومثله : «بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى» (٤) وبيت المَقْدِس سُمّى به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس، لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس . وفى الحديث : " لا قُدِّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويّهــا " . يريد لا طهّرها الله ؛ أخرجه ابن ماجه فى سُنَنه . فالقُدْس : الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر (٥) :

فأدركْنه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّســا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثَوبَ المُقَــدِّس

أى المطهّر . فالصــلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٥

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٥ (٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ (٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشــبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقــدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتــح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان، قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير ؛ وكما قال (١) :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنّى لأَوْجَلُ * على أَيِّنا تعــدُو المنيّــة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنمــا الخلاف فى « أفعل » إذا سُمّىَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدَوِيّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به؛ فيكون مثل حَواجٌّ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنّ حججن قلت: حواجٌّ بيتَ الله، فتنصب البيت؛ لأنك تريد التنوين فى حواجّ .

قوله تعــالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اختلف علمــاء التأويل فى المــراد بقوله تعــالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أُعجب ودخله الكبر لمــا جعله خازن السماء وشرفه، فاعتقد أن ذلك لمزِيّة له ؛ فاستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعــلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لمــا قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون ممــا كان وممــا يكون وممــا هو كائن؛ فهو عام .

---

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوجا بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن أشعار الحماسة) .

قوله تعـالى : وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتى. وقرئ : «وعُلِّم» غير مسمّى الفاعل . والأول أظهر؛ على ما يأتى. قال علماء الصوفية: علِمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال: « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١) » . وقال ٱبن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها . وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر . وقيل: أبا محمد؛ كُنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِيّ . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنوا الثانية، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت: أوادِم فى الجمع؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش.

وٱختلف فى ٱشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها، فسمّى بما خلق منه ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . وٱختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة؛ وزعم النَّضْر أنها البياض، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ، مأخوذ من قولهم : ناقة أدْماءُ ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْمٌ وأوادم؛ كحُمْر وأحامر، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير: إنما سُمّى آدم لأنه خلق من أدِيم الأرض ، وإنما سُمِّىَ إنسانا لأنه نَسِى؛ ذكره ٱبن سعد فى الطبقات . وروى

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

السُّدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن آبن عباس وعن مُرّة الهَمْدانِىّ عن آبن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تَشِينَنى(١)؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء و بيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعِد به ، فقال الله تعالى له : " أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك" فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ، اللازب : هوالذى يلتصق بعضه ببعض، ثم تُرِك حتى أنتن، فذلك حيث يقول: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : «إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»(٢) . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه. يقول: أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لما رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفَخّار تكون له صَلْصلة ؛ فذلك حين يقول: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»(٣) . و يقول لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

(١) فى نسخة . « أن تقبض منى أو تشينى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أوّل طبع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشينى » . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه ٱشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »[1] « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »[2] وذكر القصة . وروى الترمذىّ عن أبى موسى الأشعرىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطيّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ[3] وشتّى فى الشِّيَمْ * وكلُّهم يجمعهــم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »[4] وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين ؛ لأنه على أفعَل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرَفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفرق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق ويراد به المسمّى ؛ كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأوّل يقال : الاسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى ٱسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥ (٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ و جـ ٧ ص ١٦٨

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعةً وتسعين آسمًا". ويجرِي مجرى الذات، يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وآسمٌ بمعنًى ؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »(١) « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ » « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » .

الثالثـــة ـــ وآختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علّمها لآدم عليه السلام ؛ فقال آبن عباس وعِكرمة وقتادة ومجاهد وآبن جُبير : علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سـعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند آبن عباس فذكروا آسم الآنيَة وآسم السَّوْط ؛ قال آبن عباس : « وعلّم آدم الأسماء كلها » .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى؛ وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها » إذ هو آسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو آستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيـده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شىء" الحـديث . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال آبن عباس : علّمه أسماء كل شىء حتى الجَفْنة والمِحْلَب. وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شىء بآسمه وأنحى(٢) منفعة كل شىء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته؛ وآختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وقال آبن زيد : علّمه أسمـاء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثَيم(٣) : أسماء الملائكة خاصـة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأوّل أصح، لمـا ذكرناه آنفًا ولمـا نبيّنه إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفى الطبرى : « أبلغ » .

(٣) فى التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفى الخلاصة « خيثم » بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

الرابعــة ــ وٱختلف المتأولون أيضا هــل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ٱبن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أي أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفي الحديث "إنه عَرَضهم أمثال الذّر". وقال ٱبن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفي حرف ٱبن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفي حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال في الأسماء إنها التسميات فٱستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسمـاء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال في «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن و إن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها. قال ٱبن عطية: والذي يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا ٱسمه كذا، وهذا ٱسمه كذا. وقال المـاوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم في زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني ــ أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســـة ــ وٱختلف في أوّل من تكلم باللسان العربيّ؛ فرُوِيَ عن كعب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليــه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روي عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أوّل مَن تكلّم بالعربيــة جبريل عليه السلام وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السـلام وألقاها نوح على لسان ٱبنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو ٱبن عشر سنين". وقد رُوِي أيضا: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا» واللغات كلّها أسماء فهى داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّـة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السـلام . وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَمِيم وبعضِ قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى:

هَؤُلَا ثم هَؤُلَا كلًّا أعطيـ * ـتَ نِعالًا مَحْذُوّة بمثالِ

ومن العرب من يقول: هولاء؛ فيحذف الألف والهمزة[1].

السادسـة — قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى؛ قاله المبرّد. ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: «سبحانك»! حكاه النقاش قال: ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له: «كَمْ لَبِثْتَ» فلم يشترط عليـه الإصابة، فقـال ولم يُصب ولم يُعنَّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيـه. وحكى الطبرى وأبو عبيد: أن بعض المفسرين قال إن معنى «إن كنتم»: إذ كنتم، وقالا: هـذا خطأ. و«أَنْبِئُونِي» معناه أخبرونى. والنبأ: الخبر؛ ومنه النبىء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[2].

السابعـة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون. وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف وإنما

---

(١) فى البحر لأبى حيان «بحذف ألف ها وهمزة أولاء، وإقرار الواو التى بعد تلك الهمزة».

(٢) فى قوله تعالى: «ويقتلون النبيين بغير الحق ...» راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء.

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة[١]، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهـذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنا » بمعنى الذى؛ أى إلا الذى علمتنا؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فيَضِلّون ويُضِلّون . وأما ماورد من الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروى البُسْتِيّ[٢] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ البقاع شرّ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد، وشرّها الأسواق . وقال الصّدّيق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمَ ماقال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدّارميّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨　　(٢) فى نسخة « النسائى » .

يحيى بن المتوكل صاحب بُهيّة(١) قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلمٌ ولا فَرَج، أو عِلمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعمّ ذاك ؟ قال : لأنك آبن إمامَىْ هُدًى : آبنُ أبي بكر وعمر(٢) . قال يقول له القاسم : أقبحُ من ذاك عند مَن عَقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت آبن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُورّث جلساءه من بعـده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عمـا لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في آثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنمـا يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف في العلم . قال آبن عبد الـبَرّ : مِن بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت آبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما في زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذي يُقسِي القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أُوقيّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المـال ؛ فقامت آمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس(٣) فقالت : ماذلك لك !

---

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبي بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو آبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وآبن عمر جدّه الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : آنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : آمرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القُرَظى قال : سأل رجل عليًّا رضى الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر آبن حماد حديثَ مُسَدّد ، ثم رحلتُ إلى بَغداد ولقيت الناس ، فلما آنصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجْتَابِى[1] النِّمَار" فقال : إنما هو مُجْتابِى الثّمار ؛ فقلت إنما هو مُجتابى النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فإن له بمثل هذا عِلمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابى النِّمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة[2] ، جيوبُهم أمامَهم . والنِّمار جمع نَمِرة[3] . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنْفِى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وآنصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحـدّثتُ فى مجلس * تنـاهى حديثى إلى ما علمتُ
ولم أَعْـدُ علمى إلى غيره * وكان إذا ما تنـاهَى سَكَتُّ

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّى عن معنى نُسَبّحك تسبيحًا . وقال الكسائى : هو منصـوب على أنه نداء مضاف . و ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . و ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ و بينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكم ويجىء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرِف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَمِيع ومُؤْلِم إلى أليم ؛ قاله آبن

(١) مشققة مخططة .　(٢) مجتابى النمار ؛ أى لابسيها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر .

الأنبارى. وقال قوم: «الحكيم» المانع من الفساد؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد. قال جرير:

أَبَنِى حَنِيفةَ أَحكموا سُفهاءَكم * إنّى أخافُ عليكمُ أن أَغْضَبَا

أى امنعوهم من الفساد. وقال زهير:

القائد الخيلَ مَنْكوبًا دوابرُها[1] * قد أُحكِمتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

القِدّ: الجلد. والأَبَق: القِنَّب[2]. والعرب تقول: أَحكم اليتيم عن كذا وكذا؛ يريدون منعه. والسورة المُحْكَمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها؛ والحِكمة من هذا؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال: أَحْكَمَ الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلو شأنه؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه. فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له، مختصًّا بالعلم.

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفى الحديث: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم" أى تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل[3] العلم خاصّة

---

(١) النَّكب: أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا. والدوابر: أواخر الحوافر. يقول: يقود الخيــل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها. (٢) القنب (بكسر القاف وضمها): ضرب من الكتّان. (٣) فى نسخة من الأصل: «لأجل».

من بين سائر عيال[1] الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظامًا للعلم وأهله، ورضًى منهم[2] بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثـــة ـــ اختلف العلماء من هذا الباب، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. احتج من فضل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ». «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». وقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ[3]» وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ[4]». وفي البخاري: «يقول الله عز وجل: "من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"». وهـذا نص. احتج من فضل بني آدم بقوله تعـالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ[5]» بالهمز، من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم" الحديث. أخرجه أبو داود، وبمـا جاء في أحاديث من أن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهي إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبيـاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهـم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسـوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شيء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضي أبي بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعـالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضـل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهـا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

---

(١) في نسخ من الأصل: «عمال الله».　　(٢) في نسخة: «ورضى الله عنهم ... الخ».
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦　　(٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٩　　(٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥

لا يكون إلا لله تعالى؛ لأن السجود عبادة؛ والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد؛ وهذا واضح . وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى ؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »(١) إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» حكاه مَكّى والمـاوَرْدِى . وقال الزَّهراوى : ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جُبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية . قال ابن عطية : وجاء « تكتمون » للجماعة ؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب واتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»(٢) و إنما ناداه منهم عُيَيْنَة ، وقيل الأقْرَع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دِينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : إن الله عز وجل لمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرُّوا ذلك بينهم، [فقالوا : و](٣) ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه . و «ما» فى قوله : «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ«أعلم» على أنه فعل، و يجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به «ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله، وقد تقدّم(٤).

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة عن تفسير الطبرى .
(٤) راجع ص ٢٧٨

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وإذْ قُلْنَا﴾ أى وآذكر . وأما قول أبى عبيدة : إن «إذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم[(١)] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيما و إشادةً بذكره . والملائكةُ جمع مَلَك؛ وقد تقدّم[(٢)] . وتقدّم القول أيضا فى آدم وآشتقاقه[(٣)] فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « آسجدوا » . ونظيره « الحمدُ لله » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ٱسْجُدُوا﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْمَ فيها سُجَّدًا لِلحوافِرِ

الأُكْمُ : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعينٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال آبن فارس : سَجَد إذ تطامن، وكلُّ ما سجد فقد ذَلّ . والإسجاد : إدامة النّظر . قال أبو عمرو : وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال[(٤)] :

فُضُـولَ أزِمّتِهـا أسجدتْ * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أَسْجِدْ لِليْـلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال :

* وافَى بهـا كدراهم الإسجاد *

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١   (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢
(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩   (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ارتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثة — آستدلّ من فضّل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى «آسجدوا لآدم» آسجدوا لى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضلَ من الساجد بدليل القِبْلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لما آستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرهم بالسجود لغيره ليريهم آستغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم وآستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّنع به فأمِروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » لمّا قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفختُ فيه من روحى فقَعُوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد آستدلّ آبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »(١) . وأمّنه من العذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(٢) . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ »(٣) . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه ؛ فلم يقل : لَعَمْرِى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة، والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٢ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢

الرابعـــة — وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة؛ فقال الجمهور : كان هـــذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد فى الصلاة؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدم كالقِبْلة لنا. ومعنى «لآدم» : إلى آدم؛ كما يقال صلّى للقبْلة؛ أى إلى القبلة. وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقًى على أصل اللّغـــة؛ فهو من التذلّل والآنقياد؛ أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل. ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام؛ لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا »(1) فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين". روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِيّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمـــا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وســـلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا" فقال: يا رسول الله، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك؛ قال : "فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّى حقَّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهى على قَتَب لم تمنعه". لفظ البُسْتِيّ. ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب(2) عند الولادة. وفى بعض طرق معاذ : ونَهى عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة.

---

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤.

(2) القتب : رحل صغير على قدر السنام.

قلت : وهذا السجود المنهيّ عنه قد آتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وآستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام(١) لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم .

الخامســـة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الآستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : آبن عباس وآبن مسعود وآبن جُريج وآبن المسيّب وقَتادة وغيرهم ؛ وهو آختيار الشيخ أبى الحسن، ورجّحه الطبرى؛ وهو ظاهر الآية. قال آبن عباس: وكان آسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِس بعـد. روى سِماك آبن حرب عن عكرمة عن آبن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا. وحكى الماوَرْدِىّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر(٢) الملائكة من نور . وقال آبن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا؛ وروى نحوه عن آبن عباس وقال : آسمه الحارث . وقال شَهْر آبن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا فى الأرض وقاتلهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب؛ وحكاه الطبرى عن آبن مسعود . والآستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ» ، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنــوعْ

وآحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» ، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لـما سبق فى علم الله بشقائه عدلًا منه،لا يُسئل عما يَفعل، وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جنّ الأرض فسُبِيَ،

(١) فى نسخ من الأصل : « للأقدم » . (٢) فى نسخ : « معاشر » .

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدَوِىّ وغيره . وحكى الثّعلبي عن آبن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السـموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان آسمـه بالسريانية عزازيل ، و بالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة آجتهادا وأكثرهم علمـا ، وكان يسوس مابين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شـيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئـة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، و إن كانت خطيئته فى معصية فارْجُه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبراً . والملائكة قد تُسَمّى جِناً لآستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً »(١) ؛ وقال الشاعر(٢) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخَّرَ من جِنّ الملائِكِ تِسـعةً　＊　قيـاماً لَدَيْهِ يعمـلون بلا أَجْرِ

وأيضا لـما كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فآشتق آسمه من آسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتقّ من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف ؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبِّه بالأعجمية ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا آشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف ؛ قاله الزجاج وغيره .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه آمتنع من فعـل ما أُمِر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ آبن آدم السجدة [فسَجَد](٣) آعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه ــ وفى رواية : ياوَيْلِى ــ أُمِر آبن آدم بالسجود فسَجَد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأبَيْتُ فلِيَ النار " . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَـل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحَلْق ؛ وقد قيـل : إن الألف مضارِعة لحروف الحَلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيـل بن إسحاق القاضي يقول : القول

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤　　(٢) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان .
(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكِبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة مَن [كان](1) فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبر " . فى رواية فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه و إبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة، والمعنى واحد؛ يقال : غَمَصه يَغْمَصه غَمْصًا واغتمصه؛ أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولًا قاله؛ أى عِبته عليه . وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال: « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »(2) . « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » . « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فكفّره الله بذلك . فكلّ من سَفّه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر، حسَدَ إبليسُ آدم، وشحّ آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَدَ إبليسُ آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهـذا طِينىّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » . وقال الشاعر(3) :

بتَيْهاءَ قَفْـرٍ والمَطِىُّ كأنهـا * قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بُيوضُها

(1) زيادة عن صحيح مسلم . (2) راجع جـ ٧ ص ١٧٠
(3) هو ابن أحمر؛ كما فى اللسان مادة « كون » .

أى صارت . وقال ابن فُورَك . « كان » هنا بمعنى صـار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأوّلين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهـذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : " وإنمـا الأعمال بالخواتيم " . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمـانين ألف سنة ، وأُعْطى الرياسـة والخِزانة فى الجنة على الاستدراج ؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعْطى بَلْعام (١) الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ابن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلةً على الملائكة بمـا عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَـا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٢) » أى استكبرت ولا كِبْر لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقته من نار العِزّة؛ ولذلك حَلَف بالعزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » فالعِزّة أورثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاسـعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايتـه ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه وَلِىّ ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنـا أن العلم بأن الواحد منّا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العـلم بأنه يموت مؤمنًا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنّا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعـالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولمـا اتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

(١) فى تاريخ ابن الأثير والطبرى إنه بلعـم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السـلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ ابن الأثير جـ ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أوّل ص ٥٠٨ طبع أوروبا .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشعَرِيّ وغيره . وذهب الطَّبَرِي إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا ، وإن إبليس أول من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهـل السُّنة ، ولا خلاف أنه كان عالمـا بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا](١) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعـالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّـةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَـكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، وبعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكوناً . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكين معروف ، سُمِّىَ به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته . وسُكّانُ(٢) السفينة عربىّ؛ لأنه يُسَكِّنها عن الاضطراب .

(١) زيادة عن تفسير آبن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدّل .

الثانيــة — فى قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون ملكًا؛ ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة (١) .

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنًا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدّة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل دارى لك سُكْنَى حتى تموت فهى له حياتَه وموتَه، وإذا قال: دارى هذه اسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف فى العُمْرَى أقوى منه فى السُّكْنَى. وسيأتى الكلام فى العُمْرَى فى «هود» (٢) إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ٱبن الإعرابى يقول: لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ وإن متُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلٌّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وَصِيّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ٱبن ماجه فى سُنَنه؛ الأوّل رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها" ففى هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى فى الحكم. الثانى رواه ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا رُقْبَى فمن أُرْقِبَ شيئا فهو له حياتَه ومماتَه". قال: والرُّقْبَى أن

(١) فى بعض الأصول: «لا دخول ثواب». (٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

يقول هو للآخر: مِنّي ومنك موتا. فقوله: "لا رُقْبَى" نهيٌ يدلّ على المنع؛ وقوله: "مَن أرْقِب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النَّسائى. وذكر عن آبن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. وقال آبن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقِبها". فقد صحّح الحديث آبن المنذر؛ وهو حجة لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. ورُوِى عن علىّ وبه قال الثّورىّ وأحمد، وأنها لا ترجع إلى الأوّل أبدا؛ وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث.

والإفقار مأخوذ من فَقار الظَّهر. أفقرتك ناقتى: أعَرْتُك فَقارها لتركبها. وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال: أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير:

هنالك إن يُستخبَلُوا المالَ يُخْبِلوا * وإن يُسْئَلوا يُعطُوا وإن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة: العطِيّة. والمِنْحة: مِنحة اللّبن. والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العاريّة مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضِىّ والزّعيم غارم". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدّارَقُطْنىّ وغيرهما، وهو صحيح.

والإطراق: إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فَحْلَه: إذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه؛ ويقال: أطرِقنى فحلك أى أعِرْنى فَحْلَك ليضرب فى إبلى. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقا؛ أى قَعَا عليها. وطَرُوقة الفحل: أُنثاه؛ يقال: ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيد للضمر الذى فى الفعل؛ ومثله «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ». ولا يجوز آسكن وزوجك، ولا آذهب وربك، إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى * كنِعاج المَلا تَعَسَّفْنَ رملا(١)

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة. و«زهر» جمع زهراء، وهى البيضاء المشرقة. والتهادى: المشى الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش. «تعسفن»: ركبن.

فـ « زُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء، وقد تقدّم القول فيه[(١)] . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة »، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال: " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة ": فقال يارسول الله، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم ". وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه من غير أن يُحسّ[(٢)] آدم عليه السلام بذلك؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخذت؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لمـا أُسْكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلمّا نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟ ! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلىّ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[(٣)] » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضِّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : و إنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

---

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .　　(٢) الضلع ، كعنب وجذع .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧

لك على طريقة واحدة فإن آستمتعتَ بها آستمتعتَ [بها][(١)] وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها " . وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألَا إنّ تقـويم الضلوع آنكسارها

أتجمع ضَعفاً وآقتـداراً على الفتى * أليس عجيبا ضـعفُها وآقتـدارها

ومن هـذا الباب آستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللّحية والثّدى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعْطى نصيب رجل — روى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى[(٢)] .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول فيها[(٣)] . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وآستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لمـا وصل إليه إبليس ، فإن الله يقول : « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[(٤)] » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا[(٥)] » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا سَلَامًا[(٦)] » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ[(٧)] » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدْس ، قُدّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخْرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ، لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِيَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٣٤

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لردّ على موسى ؛ فلما سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التى أخرجهم الله عز وجلّ منها بخلاف الدار التى أُخرجوا إليها .
وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعالى من الخطايا بجهلٍ منهم؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصى؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخلد؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعِيّ وابن وثّاب بسكونها . والرَّغَد : العيش الدّارّ الهنيّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رغد[1]

ويقال : رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث، كلّها لغات، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه وقعت[(١)] . قال ٱبن العربى : سمعت الشّاشىّ فى مجلس النَّضْر[بن شُمَيل][(٢)] يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشيءُ يقرُب قُرْبًا أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أَقْرَبه قُرْبانا أى دَنَوت منه . وقَرَبت أَقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لوِرْد الغد . وقال ٱبن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لما أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال ٱبن عطية : وهذا مثالٌ بَيِّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تَقْرَبَا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شيء ولا يؤمر ولا يُنْهَى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهَم يُنعت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهــذه الشجرة . وقــرأ ٱبن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك ٱنكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(١) أى من غير تلك الشجرة .

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن ٱبن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » . والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسـين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سـنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .

وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ ، وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة؛ ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشِّجرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار، ووادٍ شَجِير؛ ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعي يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة؛ بكسر اللام مخالفةُ لأخواتها. وقال سيبو يه : الشَّجراء واحد وجَمْـع ، وكذلك القَصْـباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهرى .

التاســعة — وآختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهى عنها فأكل منها ؛ فقال آبن مسعود وآبن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرّمت علينا الخمر . وقال آبن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة، والحبةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولمـا تاب الله على آدم جعلهـا غذاء لبنيه . وقال آبن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التِّين (١) ، وكذا روى سعيد عن قتادة؛ ولذلك تُعَبَّر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلى . قال آبن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العـاشرة — وآختلفوا كيف أكل منهـا مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظالِمِين »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليهـا ، فلم يتأوّلا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غَرّه [بالأخذ] (٢) بالظاهر . قال آبن العربى : وهى أوّل معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لاحِنْث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة . (٢) الزيادة من آبن العربى .

مالك وأصحابه : إن ٱقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وإن ٱقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنِث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد ٱختلف علماؤنا فى فرْع من هذا ؛ وهو أنه إذا حلَف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنَث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال ٱبن المَوّاز : لا شيء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة و إنما أكل خبزا فراعى الأسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنِث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما ٱشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النّهى على النّدب . قال ٱبن العربىّ : وهذا و إن كان مسئلة من أصـول الفقه فقـد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النّهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١) » . وقال ٱبن المُسَيَّب : إنما أكل آدم بعد أن سَقَته حَوّاء الخمر فسكر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال ٱبن العربىّ : وهـذا فاسد نقلًا وعقلًا ، أما النّقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض وٱقتحام الجرائم .

قلت : قد ٱستنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيًا ، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتمًا وجزمًا فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١) » . ولكن لمـا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُـلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشـاغله عن تذكّر النّهى تضييعًا صار به عاصيًا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كِفّة ميزان ووُضع حِلْم آدم فى كِفّة أخرى لرجحهم ؛ وقـد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٣

قلت : قولُ أبي أُمامة هذا عمومٌ في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان أوفر الناس حلمًا وعقلاً . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَين وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبًا وحريرًا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتي" . وقال في خبر آخر : "هذان مهلكان أمتي" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقــال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حــوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتي بيانه — وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أوّل فتنة دخلت على الرجال من النساء؛ فقال : ما مَنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد؛ فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سَلِمْتَ أنت ؛ فأكلتْ فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كُلْ فإني قد أكلتُ فلم يضرّني ؛ فأكل فبــدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » فجمعهما في النّهي ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهيّ عنه منهما جميعًا ، وخَفيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان، إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقــد ٱختلف علمــاؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ٱبن القــاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بٱجتماعهما في الدخول ؛ حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحْنون . وقال ٱبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التي دخلت وحدها؛ لأن دخول

كلّ واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها. قال ٱبن العربى: وهذا بعيد؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا.

قلت: الصحيح الأول، و إن النّهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت: لا تدخلا الدار، فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ» جوابه؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا، فلما أكلت لم يصبها شىء؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملًا. وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ». وقيل: نسى قوله: «إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ». والله أعلم.

الثـانية عشرة — وٱختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا — بعد ٱتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رزيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر[(١)]، وعند الأستاذ أبى إسحاق[(٢)] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة، وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم —؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين: تقع الصغائر منهم. خلافا للرافضة حيث قالوا: إنهـم معصومون من جميع ذلك؛ وٱحتجّوا بمـا وقع من ذلك فى التنزيل وثبتَ من تنصّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحـاب مالك وأبى حنيفة والشافعى: إنهـم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أُمِرنا باتباعهم فى أفعـالهم وآثارهم وسِيَرهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بٱمتثال أمرٍ لعلّه معصية، لا سيّمـا على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى.

(٢) هو إبراهيم بن محمـد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى. وفى الأصول: «عند الأستاذ أبى بكر» وهو تحريف. (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف).

الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى : وآختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بهـا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ؛ وكل ذلك وَرَد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها و إن قَبِل ذلك آحادها ؛ وكل ذلك ممـا لا يُزْرِى بمناصبهم ، و إنمـا تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهـة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلوّ أقدارهم ؛ إذ قـد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — و إن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبهم ، بل قد تلافاهم وآجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصـله وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أُصَيْلالًا أسائلها * عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع من أحد
إلا الأَوارِىّ لَأْيًا ما أُبيِّنهـا * والنُّؤْى كالحَوْض بالمظلومة الجَلَد (١)

ويُسَمَّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصبَحَ فى غبراءَ بعـد إشاحةٍ (٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه المـاء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : * ... ظَلّامون لِلجُزُرِ[(١)] *

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيِّبة ، إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم وَطْبَه[(٢)] ، إذا سقى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرِج زُبْده . واللبنُ مظلوم وظَليم . قال :

وقائـلةٍ ظلمتُ لكم سـقائى * وهـل يَخْفَى على العَكَدِ الظلـيم[(٣)]

ورجل ظَليم : شديد الظلم . والظلم : الشرك ؛ قال الله تعالى : « إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أَمْر ، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذّ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُؤْكُل ، فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعـام أَكْلًا ومأْكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تشـبع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة ، تقول : أكلت أُكْلَةً واحدة ؛ أى لُقْمة ، وهى القُرْصة أيضـا . وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك ، أى طُعْمَةٌ لك . والأُكُلُ أيضـا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكُل ، إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصـدر محذوف ؛ أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرّغد فى اللغـة : الكثير الذى لا يُعنّيـك ، ويقال : أرغد القوم ، إذا وقعوا فى خِصْب وسَعَة . وقد تقدّم[(٥)] هذا المعنى . و﴿حَيْثُ﴾ مبنيّة على الضّم ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف ، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغـة قيس وكِنانة الضّم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسـد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضـع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[(٦)] وتُضمّ وتُفتح . ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من « هـذه » بدل من ياء الأصل ؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل ، وهو بتمامه :

عاد الأذلة فى دار وكان بها * هُرْتُ الشقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢

(٥) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٢ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

إلا هاء « هــذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنــد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عَبّاد قال : كان آبن كَثير وآبن مُحَيْصن لا يُثْبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن آبن وَثّاب والنَّخَعِىّ أنهما سَكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفَرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهــذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحــاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَىّ لَوْلَا ساكنُ الدَّارِ لم أُقِمْ * بِتَا الدَّارِ إلّا عابرَ آبن سـبيل

قال آبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزله ذى بإسقاط ها من هذى، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء: مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛ لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة.

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على «تقربا» فلذلك حُذفت النون. وزعم الجَرْمِىّ[1] أن الفاء هى الناصبة؛ وكلاهما جائز .

قوله تعــالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلّهما » بغير ألف، من الزَّلة وهى الخطيئة ؛ أى آستزلها وأوقعهما فيها. وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التَّنحية ؛ أى نَحّاهما . يقال: أزلته فزال . قال آبن كَيْسان : فأزالها من الزوال؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى، إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى. يقال منه : أزْلَلْته فَزَلّ. ودلّ على هذا قولُه تعالى: «إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا»[2]، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ » والوسوسة إنما هي إدخالها في الزّلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله في الزلل؛ فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى أزلها من زلّ عن المكان إذا تنحّى؛ فيكون في المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال آمرؤ القيس :

يُزِلّ الغـــلامَ الخِفَّ عن صَهَواتِه * ويُلْوِى بأثواب العَنِيف المثقَّـــلِ [(١)]

وقال أيضا :

كُمَيْتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِه * كما زلّت الصّـــفْواء بالمتـــنزّلِ [(٢)]

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض. ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل آزداد سُخْنة [(٣)] عَين وغَيظ نفس وخَيبة ظنّ. قال الله جلّ ثناؤه: «ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» [(٤)] فصار عليه السلام خليفة الله في أرضه بعد أن كان جارًا له في داره؛ فكم بين الخليفة والجار! صلّى الله عليه وسلم. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم؛ وآختلف في الكيفية، فقال آبن مسعود وآبن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه: دخل الجنة في فم الحيّة وهي ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر): الخفيف. والصهوة: موضع اللبد من ظهر الفرس. ويلوى بها: يذهب بها من شدّة عدوه. والعنيف: الذي لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل. والمثقل: الثقيل.

(٢) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والحال: موضع اللبد من ظهر الفرس. والصفواء (جمع صفاة): الصخرة الملساء. والمتنزل: الذي ينزل عليها فيزلق عنها.

(٣) سخنت عينه: نقيض قرّت.

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٥٧

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بهـا إلى حوّاء فقال : ٱنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها ! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا ياربّ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال أستحى منك يارب؛ قال : ٱهبط إلى الأرض التى خُلقت منها . ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها و بين بنى آدم؛ ولذلك أُمِرنا بقتلها ؛ على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء : كما أَدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سَفِيهة وقــد كنت حَلِيمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها و إنمـا أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى ؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم : " إن الشيطان يجـرى من ٱبن آدم مجرى الدم " . والله أعلم . وسـيأتى فى الأعراف[1] أنه لمـا أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنــه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فٱستتر به، فبُلِىَ بالعُرْى دون الشجر. والله أعلم . وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثــــة — يُذكر أن الحيــة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكّدت العــداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك . روى ٱبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى ؛ فكان ٱبن عباس يقول : أخْفِروا[2] ذِمّة إبليس . وروَت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت : سمعت

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١　　(٢) أى ٱنقضوا عهده وذمامه .　　(٣) فى التقريب : « بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المدّ » . وفى أسد الغابة : « بفتح السين و إمالة الراء المشدّدة ، وآخره ياء ساكنة » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " آقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومن قتله كان شهيدا". قال علماؤنا: وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه في النار أبدًا". أخرجه مسلم وغيره.

الرابعــة — روى آبن جُرَيج عن عمرو بن دِينار عن أبي عبيدة[1] بن عبد الله بن مسعود قال: كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " آقتلوها" فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا". قال علماؤنا: وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى؛ قالوا: فلم يَبق[2] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر.

فإن قيــل: قد رُوي عن إبراهيم النَّخَعي أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار، وقال: هو مُثْلَة. قيل له: يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعمل على الأثر الذي جاء: " لا تعذِّبوا بعذاب الله" فكان على هذا سبيل العمل عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غار وقد أنزلت عليه: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» فنحن نأخذها من فيه رَطْبَة، إذ خرجت علينا حيّة، فقال: " آقتلوها"؛ فآبتدرناها لنقتلها فسبقتنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها". فلم يُضرم نارا ولا آحتال في قتلها. قيل له: يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنــار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم. وقوله: " وقاها الله شرّكم" أي قتلكم إيّاها " كما وقاكم شرّها" أي لَسْعَها.

---

(١) كذا في جميع نسخ الأصل. وفي غيرها من التفاسير: «عن عبد الله بن مسعود». ويبدو أن الأصل: «عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله» الخ. (٢) الضمير للحديث؛ أي لم يبق هذا الحديث الخ.

الخامســـة — الأمرُ بقتل الحيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المَخُوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله : "آقتلوا الحيّات وآقتلوا ذا الطُّفْيَتين(١) والأبْتَر فإنهما يَخْطفان البصر ويُسقطان الحَبَل". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيـه، ولأنه كله مروّع بصورته وبمـا في النفوس من النّفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يحب الشّجاعة ولو على قتـل حيّة". فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا : "آقتلوا الحيات [كلهنّ(٢)] فمن خاف ثأرهنّ فليس منى". والله أعلم.

السادســـة — ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام". وقد حمل بعض العلماء هـذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا : ولا نعلم هل أسلم من جنّ غير المدينـة أحدٌ أولا؛ قاله آبن نافع. وقال مالك : نهى عن قتـل جِنّان(٣) البيوت في جميع البـلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال : « وإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ(٤) » الآية. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه : وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتي بكماله في سورة « الجنّ(٥) » إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرَّج(٦) عليه ويُنذر؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين : حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين.　(٢) الزيادة عن سنن أبي داود.

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان) : ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير في بيوت الناس.　(٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠　(٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد.

(٦) في هامش نسخة من الأصل : « التحريج هو أن يقول لها : أنت في حرج — أي في ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل ». وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان.

السابعـــة ــ روى الأئمة عن أبى السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدْرىّ فى بيته، قال : فوجدته يصلّى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجينَ ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها؛ فأشار إلىّ أن آجلس فجلست؛ فلما آنصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم؛ فقال : كان فيه فَتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فآستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة ". فأخذ الرجل سـلاحه ثم رجع؛ فإذا آمرأتُه بين البابين قائمـة فأهْوَى إليهـا بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غيْرَة؛ فقالت له : آكفف عليك رمحك، وآدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فآنتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فمـا يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتًا، الحيّةُ أمِ الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : آدع الله يحييه [لنـا](1)؛ فقال : " آستغفروا لأخيـكم(2) ــ ثم قال : ــ إنّ بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنمـا هو شيطان " . وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لهذه البيوت عوامر(3) فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر ــ وقال لهم : ــ آذهبوا فآدفِنوا صاحبكم " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا؛ لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتـل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنمـا قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا؛ فهذا قتـل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى

(1) الزيادة عن صحيح مسلم . (2) فى صحيح مسلم : « لصاحبكم » .

(3) العوامر : الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة .

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وٱنتقاما . وقد قتلت سعد ٱبن عُبَادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد ٱخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قــد قتلنا ســيّد الخزْ * رَج سعدَ بن عُباده

ورمينـــاه بسهميـ * ـن فلم نُخْطِ فؤاده

و إنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرّز من قتل المسلم منهم و يتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ، فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بٱثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة ؛ فتصدّقت وأعتقت رِقابًا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّـات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنـــة ــ فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار ؛ وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرِّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام". وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات ، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : و يكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنَانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

عليه السلام ، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـــلوه .

قلت: وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة؛ والحديث يردّه. والله أعلم. وقد حكى آبن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذيننا وألّا تظهرنّ علينا .

التاسعـــة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ — وآسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يَحِلّون ويَظعَنون ". وروى أبو الدَّرداء — وآسمه عُوَيْمر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه " .

العـاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل آبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف؛ كالحيّة والعَقْرب والفأر والوَزَغ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " خمسٌ فواسقُ يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم ... " . وذكر الحديث .

فالحيّة أبْدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " آقتلوها ولو كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة (١) نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يُرْوَى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سامّ أبرص .

قتل كافرا ". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قتل وزغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك" وفى رواية أنه قال : "فى أوّل ضربة سبعون حسنة" .

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقتل المُحْرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادى والكلب العقور والفُوَيْسقة". وٱستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فَتِيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبىّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المائدة »(١) وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ حُذفت الألف من « ٱهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصفّى عن أبى حَيْوَةَ ضمّ الباء فى « ٱهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدّى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان ؛ فى قول ٱبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيب فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(٢) ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فٱمتلأ ما هناك طِيباً؛ فمن ثَمَّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فاصلع، فأورث ولده الصلع . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله آدم

---

(١) راجع ج ٦ ص ٣٠٢   (٢) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة وإبليس بالأُبُلَّة[١]، والحيّة بِبَيْسان[٢]، وقيل : بِسِجِسْتان[٣] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ[٤] الذى يأكلها ويفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبو الحسن المسعودى.

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ «بعضكم» مبتدأ ، «عدوّ» خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم. وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخـوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هـذا الأمر ؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحـد فى مكروه صاحبه ؛ ومنه العَـدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشىء ، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ وإن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليـه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه ٱتق الله فينا فإنك إذا ٱستقمت ٱستقمنا وإن ٱعوججت ٱعوججنا". فإن قيل: كيف قال « عدوّ » ولم يقـل أعداء؛ ففيه جوابان . أحدهما : أن بَعْضًا وكُلًّا يُخـبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى: « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا[٥] » على اللفظ، وقال تعـالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[٦] » على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[٧] » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَـدُوُّ[٨] » . وقال ٱبن فارس : العدوّ ٱسم جامع للواحد والٱثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .
(٢) بيسان : بلدة بمرو وبالشام وموضع باليمامة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : ٱسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربد (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠ (٨) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥

الثالثـــة ـــ لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمِحْنة. والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قـد ظهر من الحكمة الأزليّة فى ذلك ، وهى نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِىّ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقـد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا اهْبِطُوا »(1) وسيأتى .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ابتـداء وخبر ؛ أى موضـع استقرار . قاله أبو العالية وابن زيد . وقال السُّدّىّ : « مُسْتَقَرّ » يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً »(2) يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبْس وحيـاة وحديث وأُنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمتّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ اختلف المتأولون فى الحين على أقوال؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقَرّ هو المقام فى الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة؛ وهذا قول من يقول : المستقَرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِى الرّماد(3) عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه * حِينَ الشتاءِ كحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفًا ؛ أى تهوّر من أسفله واتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزَة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ

(1) ص ٣٢٧   (2) راجع ﺟ ١٥ ص ٣٢٨   (3) كابى الرماد : أى عظيم الرماد .

والحين أيضـا : المدّة ؛ ومنه قوله تعـالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(١) . والحين : الساعة؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ »(٢) . قال ابن عَرَفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ»(٣) أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »(٤) أى كل سنة؛ وقيل : بل كل ستة أشهر؛ وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرىّ : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتّة . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغُدْوة والعَشِيّة؛ قال الله تعـالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »(٥) . ويقال : عاملته مُحايَنةً؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حينًا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَةُ :

وإنّ سُلُوِّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولاحان حِينُهَا

السابعـــة — لمـا اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفَـرّاء : الحين حِينان : حِين لا يوقف على حدّه، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا »(٥) ستة أشهر. قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلّق به حُكم، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام و يرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمـان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا، وليس فيـه نص عن صاحب الشريعة، و إنمـا المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نَذَر أن يصلّى حِينًا فيُحمل على ركعة عنـد الشافعى ؛ لأنه أقل النافلة ، قياساً على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْـداد فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حِينًا أو لا يفعل كذا حينًا ، أن الحين سنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤

قلت : هذا الاتفاق إنمـا هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : مَن حلف ألا يفعل شيئا إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشّعْبيّ وعَبِيـدة فى قوله تعالى : « تُؤْتِى أُكُلها كُلّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » أنه سـتة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيـد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا. وقال: لا نُحنّثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعيّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغـة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلمـاء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تَلَقَّى قيـل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقّ الوَحْى؛ أى يستقبله ويأخذه ويتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّ الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّ تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّ مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنمـا يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص. ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشـبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تَقَبّى مِن تقبّل ، ولا تلقّ مِن تلقّن؛ فاعلم . وحَكَى مكيّ أنه ألهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولُها تعلّمه لها وعمله بها .

الثانيـــة ــ وٱختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال ٱبن عباس والحسن وسعيد ٱبن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(١) . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إلٰهَ إلّا أنت ربّى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفــة : رأى مكتوبا على ساق العــرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل: الندم والٱستغفار والحزن. قال ٱبن عطية: وهذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الٱستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب ؛ فقال: يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى »(٢) . وقال يونس : « لا إِلٰهَ إِلّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »(٣) . وعن ٱبن عباس ووهب بن مُنَبِّه : أن الكلمات « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم » . وقال محمــد بن كعب هى قوله : « لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فٱرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت ســبحانك وبحمدك عملتُ ســوءا وظلمتُ نفسى فٱرحمنى إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمــد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم(٤) .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أى قَبِل توبته ، أو وفّقه للتّوبة . وكان ذلك فى يوم عاشــوراء فى يوم جمعة ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبــد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٣
(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

الرابعـــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع، وقد قال: «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ» و «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» . فالجواب : أن آدم عليه السلام لما خوطب فى أوّل القصة بقوله : « اسْكُنْ» خصّه بالذكر فى التلقّى؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله الستر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تُذكر، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليـه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »(1) أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ؛ والمعنى متقارب . وقال الشاعر(2) :

رمانى بأمر كنتُ منه ووالدى * بريئًا ومن فوق الطَّوِىّ رمانى(3)

وفى التنزيل : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »(4) فحذف إيجازا واختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب؛ وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا واسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا توّاب؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(5) . قال ابن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدْعى به كما فى الكتاب والسنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى، وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسىء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(1) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ . (2) هو عمرو بن أحمر الباهلى . (3) الذى فى شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : « وصف فى البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة فى بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما » . (4) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (5) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

السادســة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى : تائب، آسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليــه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليــه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ »(١) . وقال: « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »(٢) . وإنما قيل لله عزّ وجل : توّاب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعــة — اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة ؛ لأنّ الله سبحانه وتعـالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهـذا الأصل العظيم فى الدّين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنوبه « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »(٣) .

الثامنــة — قرأ آبن كثير : « فتلقّى آدمَ مِنْ رَبِّهِ كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى ؛ لأنّ آدم إذا تلقّى الكلمات فقـد تلقته . وقيـل : لمـا كانت الكلمات هى المنقـذة لآدم بتوفيق الله تعـالى له لقبوله إياها ودعائه بهـا كانت الكلمات فاعلة ، وكأن الأصل على هـذه القراءة « فتلقّت آدمَ من ربه كلماتٌ » ؛ لكن لمّا بعـد ما بين المؤنث وفعـله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهـذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلام إذا جاء فعـل المؤنث بغير علامة ؛ ومنـه قولهم : حضر القـاضى اليوم آمرأة . وقيـل : إن الكلمات لمّا لم يكن تأنيثـه حقيقيًّا حُمِـل على معنى الكَلِم ، فذُكّر . وقـرأ الأعمش : « آدمْ مِّن ربه » مدغمـا . وقرأ أبو نَوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمـزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر البـاقون على الآستئناف . وأدغم الهـاء فى الهـاء أبو عمـرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهـم . وقيـل : لا يجوز ؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو ، وأنشـد :

لهُ زَجَلٌ كأنَّهُ صَـوْتُ حادٍ * إذا طَلَب الوَسِـيقةَ أو زَميرُ [1]

فعلى هـذا يجوز الإدغام ، وهو رفع بالابتداء . « التوّاب » خبره ، والجمـلة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ؛ على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جُبير : لمـا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النّسر فى البر ، والحوت فى البحر ؛ فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه ويبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى ، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ . وقيـل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهمـا حُكمًا غيرَ حُكم الآخر ؛ فعلّق بالأوّل العداوة ، وبالثانى إتيـان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيـه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دلّ عليـه حديث الإسراء ؛ على ما يأتى [2] .

﴿ جَمِيعًـا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبِّه : لمـا هبط آدم عليـه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولّوا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لما فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألِف آدم تفرّقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذيّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لمـا أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم (١) على آدم ليؤذوه؛ وكان أشدّهم عليه الكلب، فأُميت فؤاده؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمى بمَدَرٍ ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهِرّ ويعدو على الآدميّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه (٢) على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف (٣) » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله؛ قاله السُّدّى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل، وهى إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيـه من البشر ؛ كما جاء فى حديث أبى ذَرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى ؛ خلافًا للقدرية وغيرهم ؛ كما تقدّم (٤) . وقرأ الجَحْدَرِىّ « هُـدَىّ » وهو لغـة هذيل، يقولون : هُـدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذُؤَيب يرثى بنيه :

سَبَقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ * فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ (٥)

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٣ (٤) راجع المسألة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .

(٥) « هوىّ » : يريد هواى؛ أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب الى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلّة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تُحرّك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » فى قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التى للشرط ، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . و « تبع » فى موضع جزم بالشرط . « فَلَا خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثانى وجوابه همـا جواب الأوّل . وقال الكسائى : فلا خَوْفٌ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فَخُفْتُه ، أى كنت أشدّ خوفًا منه . والتخوّف : التنقّص ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(١) . وقرأ الزُّهْرِىّ والحسن وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأن « لا » لا تعمل فى معرفة ، فآختاروا فى الأوّل الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» فى قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا ، مثل أسلكه وسلكه ؛ ومحزون بُنِىَ عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ؛ وقد قرئ بهما . وآحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى فى الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لمـا وصفه الله تعالى ورسوله من شـدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، و إذا صاروا إلى رحمته فكأنهـم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أشركوا، لقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الصحبة : الاقتران بالشيء فى حالة مّا، فى زمان مّا ؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهى كمال الصحبة؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على مانبيّنه فى « براءة »(1) إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ابن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ ؛ فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوّة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوّة، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَىّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَىِّ ويا بُنَىَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتقّ من البناء وهو وضع الشيء على الشيء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجوزىّ : وليس فى الأنبيـاء من له اسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه اسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه الله رُوحًا وكَلِمة ، وكانوا يسمّونه أبِيل الأبِيلِين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى «دلائل النبوّة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين ، محمد وأحمـد نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، صلى الله عليهم وسلم .

(1) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسمـاء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل: ٱسم أعجمى، ولذلك لم ينصرف؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل، وهى لغة القرآن . و إسرائيل، بمدّة مهموزة مختلسة، حكاها شنّبوذ عن ورْش . و إسرايِيل، بمدّة بعد اليـاء من غير همز، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر؛ وقرأ الحسن والزهرى" بغير همز ولا مدّ . و إسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . و إسراءَل ، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ٱبن عباس : إسرا بالعبرانية هوعبد، و إيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله، و إيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه؛ ذكره المهدَوِى . وقال السُّهيلى : سمي" إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا؛ فيكون بعض الأسم عبرانياً و بعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر ٱسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء بلسانى وقلبي ذِكرا . وٱجعله منـك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنســه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهـو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) . قال ٱبن الأنبارى : والمعنى فى الآية ٱذكروا شكر نعمتى؛ فحذف الشكر ٱكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب؛ أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها؛ وهو حسن . والنعمة هنا ٱسم جنس ، فهى مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »(٢) أى نِعَمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى ، وبفجّر لهم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣	(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

من الحجر المـاء ، إلى ما آستودعهم من التـوراة التى فيها صـفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته . والنعم على الآباء نعم على الأبناء ؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيــه ـــ قال أرباب المعـانى : ربط سـبحانه وتعالى بنى إسرائيـل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره ، فقـال : « ٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ »(١) ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابه . وقرأ الزهرىّ : « أُوَفِّ » (بفتح الواو وشـد الفـاء) للتكثير . وآختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ »(٢) ، وقوله : « وَلَقَـدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا »(٣) . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(٤) . وقال الزجاج : « أَوْفُوا بعهدى » الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، « أوفِ بعهدكم » بمـا ضمنت لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، « أوف » بقبولهـا منكم ومجاراتكم عليها . وقال بعضهم : « أَوْفُوا بعهدى » فى العبادات ، « أوف بعهدكم » أى أوصلكم إلى منـازل الرعايات . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى حفظ آداب الظواهر ، « اوف بعهدكم » بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ » ، « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضُّلٌ منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرُّهْب والرَّهَب والرَّهْبَـة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعـد النون لأنهـا رأس آية . وقـرأ آبن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١١٢ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

أبي إسحاق: « فٱرْهَبونِي » بالياء، وكذا « فٱتقونى »؛ على الأصل . « وإيَّايَ » منصوب بإضمار فعـل ، وكذا الاختيـار فى الأمر والنهى والاستفهام ؛ التقـدير : وإياى ٱرهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فٱرهبون؛ على الابتداء والخبر . وكون « فٱرهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فٱرهبون .

قوله تعـالى : وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَـا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدِّقوا ؛ يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى « أنزلت »؛ التقدير بما أنزلته مصدقا ؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية ؛ التقدير آمنوا بإنزال . ﴿ لِمَـا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم ؛ قاله أبو العالية . وقال ٱبن جُريج : هو عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : « بِمَـا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة، إذ تضمنها قوله : « لِمَـا معكم » .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين ؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به . وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أوّل من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتًى وأجمله . وقال : « أوّلَ كافرٍ به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هـذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم عِلم . و « أول » عنـد سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل ؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين : العين والفـاء ؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وَأَلَ إذا نجا ؛ فأصـله أَوْأَل ، ثم خُفِّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : « والجمع الأوائل والأوالِى أيضا على القلب . وقال قوم : أصـله وَوّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . و إنمـا لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيـل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أَأْوَل؛ قلب بجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مســـئلة — لا حُجّة فى هـذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا ؛ وخصّ الأوّل بالذكر لأن التقدّم(١) فيه أغلظ ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنًا؛ أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رُشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنـه ؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبـار كانوا يعلّمون دينهـم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يآبنَ آدمَ عَلِّم مجّانًا كما عُلّمت مجّانًا ؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنـا قليلا ، يعنى الدنيـا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسُمّى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنًا ؛ لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليــه آسم الثمن و إن لم يكن ثمنًا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنبًا أوظفِرتَ به * فمـا أصبتَ بترك الحج مِن ثَمَن

قلت : وهذه الآية و إن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو آمتنع من تعليم ما وَجَب عليــه ، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " يعنى ريحها .

الثانيـــة — وقد آختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهْرِيّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نيّة التقرب والإخلاص؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا» . وروى آبن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين " . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين ؟ قال : " درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء " . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علّمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسًا؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فقال : " إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فآقبلها " . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء؛ لقوله عليه السلام فى حديث آبن عباس — حديثِ الرُّقْيَة — : " إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله " . أخرجه البخارى ؛ وهو نصٌّ يرفـع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه فى مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، وهو أن الصـلاة والصوم عباداتٌ مختصّة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة؛ ويجوِّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شِعرا أو غناء معلوما بأجرٍ معلوم؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعلم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليـل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته، وإلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمـا ولى الخلافة وعُيّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق؛ فقيل له فى ذلك، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه ســعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وســعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم، وإنمـا رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند أهل العلم (١) ولكنه له مناكير، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العــلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقـال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للعلم وبراءة لأبويه من النار" .

---

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثـــة ـــ وآختلف العلماء فى حكم المصلّى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من آســتُؤْجِر فى رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ على ما تقدّم . قال آبن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهـــذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعـالى . وكره آبن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال آبن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيــه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللَّخْمِىّ : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبــه . وأما الغناء والنَّــوح فممنوع على كل حال .

الرابعـــة ـــ روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد آبن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانىّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة ـــ وهو يريد مكة ـــ فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـــذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرَفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد آبن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم، مالنا نكره المـــوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـــا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده؟ قال :

«إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ»(١) . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبوحازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع آجتناب المحارم . قال سليمان: فأى الدعاء أسمع؟ قال: دعاء المحسَن إليه للمحسِن . فقال: أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ(٢)، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل آنحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أَوَ تُعفينى؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عَنْوَة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقـد آرتحلوا عنها، فلوشعرتَ ما قالوه وما قيل لهم! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتمسّكُون بالمرؤة وتقسمون بالسّويّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه مِن حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سـليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان: ارفع إلينا حوائجك . قال: تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فآدع لى . قال أبو حازم : اللّهُمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، و إن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قَطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧ (٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهــله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغى أن أرمى عن قَوس ليس لها وَتَر . قال له سليمان : أَوْصنى ؛ قال : سأُوصيك وأوجز : عظِّم ربك ، ونَزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه][1] أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سـؤالك إيّاى هَزْلًا أو ردّى عليك بَذْلًا[2] ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها][1] لنفسى ! إن موسى بن عِمران لما وَرَد ماءَ مَدْيَن وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألها ، فقالتا : لا نَسق حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير][1] ؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظِّل فقال : رَبِّ إنى لِما أنزلتَ إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة و بقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هــذا رجل جائع . فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبي يدعوك لِيجزِيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا ؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوْحشًا . فلما تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عَجيزتها ـــ وكانت ذات عَجُز ـــ وجعل موسى يُعرِض مَرّة و يغضّ أخرى ؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كونى خلفى ، وأرِينى السَّمت بقولك . فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيّأ ؛ فقـال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليه السـلام : أعوذ بالله ! فقـال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضًا لمَا سقيتُ لهما ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المائة دينار عوضًا لما حدّثتُ فالميتة والدّمُ ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هذه ، وإن كان لحق فى بيت المال فلى فيها نظراء ، فإن ساوَيْت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .
(٢) بذلا : أى راجيا بَذْلَكَ وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضًا ، ولا على وصيته بَدَلًا ، ولا على نصيحته صَفَدًا (١) ؛ بل بيّن الحق وصَدَع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فَزَع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يمنعنّ أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل . « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقدّم معنى التقوى (٣) . وقرئ « فاتقونى » بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله « وإيّاىَ فاتقونِ » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وإيّاىَ فارهبونِ » قال : موضع المكر والاستدراج (٤) ؛ لقول الله تعالى : «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٥)» ، وقوله : «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٥)» . فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبسه ، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكله وحقَّه بباطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٦) » . وفى الأمر لُبْسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعْرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صَدِّق مقالتَه واحذَر عداوته * والبس عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها .
(٤) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : « وقال سهل : « وإياى فارهبون » موضع اليقين بمعرفته ، « وإياى فاتقون » موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .
(٥) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٥٤ . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

وقال العَجّاج :

لما لَبَسْنَ الحقّ بالتَّجَنِّى * غَنِين واستبدَلْن زيدًا منّى

روى سعيد عن قتادة فى قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ » ، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلامُ ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتِيبةٍ لَبّستها بكتيبة *

أنه من هذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية ؛ أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب ؛ يقال : لبِست الثوب ألْبَسه . ولباس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضّجيع ثَنَى جِيدَها * تَثَنّتْ عليه فكانت لباسًا

وقال الأخطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[1] . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس ؛ أى مستمتع . قال :

أَلَا إن بعد العُدْم للمرء قِنْوَةً[2] * وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألا كلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشىء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضياعا وخسرا[3]] ، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلاً ؛ أى هَدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمّى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواء بأيدى ماجدٍ بطلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكسبة .
(٣) الزيادة عن اللسان .

والمرأةُ بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة و بَطَالة(١) ؛ أى صار شجاعا . و بطَل الأجير (بالفتح) بَطَالة ؛أى تعطّل ، فهو بطّال . وآختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فروِى عن آبن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقّ ، و بجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال آبن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليــه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول آبن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقــدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال آبن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سِيرِين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليــه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنــون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وســلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ(٢) » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، و إنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ(٣) » الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتــان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقــله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه؛ وقد تقدّم القول في معنى إقامة الصلاة وآشتقاقها وفي جملة من أحكامها[1] ، والحمد لله .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمرٌ أيضا يقتضي الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيته : أعطيته؛ قال الله تعالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته — بالقصر من غير مدّ — جئته ؛ فإذا كان المجيء بمعنى الآستقبال مُدّ ؛ ومنه الحديث : " ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه " . وسيأتي .

الثالثــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد؛ يقال : زكا الزرعُ والمالُ يزكو ، إذا كثر وزاد . ورجل زكي ؛ أي زائد الخير . وسُمّيَ الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثاب به المزكّي . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت الناقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقوا وجدود الناس تَعْتَلِجُ

جمع جَدّ، وهو الحظّ والبخت . تعتلج أي ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خسًا : الفردُ، وزكًا : الزّوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكّى القاضي الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أي طهر من دنس الجَرْحة والإغفال[2]. فكأن الخارج من المال يطهّره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ الناس؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا[3] » .

الرابعــة — وآختلف في المراد بالزكاة هنا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتها بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر؛ قاله مالك في سماع آبن القاسم .

---

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء . (٢) في نسخة : «أو الإغفال» وكذا في تفسير آبن عطية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق[1] ولا فيما دون خمسِ ذَوْدٍ[2] صدقة ولا فيما دون خمسِ أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الوَرِق ". وروى البخاريّ عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقَتِ السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا[3] العُشْرُ وما سُقِىَ بالنَّضْح[4] نصفُ العُشر ". وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام[5] » إن شاء الله تعالى. ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً[6] » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوّله مالك هنا، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى[7] . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ». والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان، الحديث. وسيأتى، فأضافها إلى رمضان .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الٱنحناء بالشخص ؛ وكل منحن راكع . قال لَبِيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ٱبن دُريد : الركعة الهُوَّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الٱنحناء يعم الركوع والسجود؛ ويستعار أيضا فى الٱنحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

---

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ٱبن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سيحا ، والأوّل أشهر» . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار . (٥) راجع جـ ٧ ص ٩٩ . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ . (٧) راجع جـ ٢٠ ص ٢١ .

السادســة — وآختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم: جعل الركوع لمـا كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة [عبارة] (١) عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة". وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيــل : إنمـا خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران بن حُصين — للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : على ألّا أخِرّ إلا قائمـا . فمن تأويله على ألّا أركع ؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه آطمأنت بذلك نفسه وآمتثل ما أمر به من الركوع.

السابعــة — الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا؛ وذلك أدناه . روى مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يُشخص (٢) رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك . وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر (٣) ظهره ؛ الحديث .

الثامنــة — الركوع فرض ، قرآنا وسُنّة ، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا» (٤) . وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا . وأما السجود فقد جاء مبيَّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض .
(٣) هصر ظهره : أى ثناه إلى الأرض . (٤) راجع جـ ١٢ ص ٩٨

آنبساط الكلب " . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضَع كفيك وآرفع مرفقيك " . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليــه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه — يعنى جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه — و إذا قعد آطمأن على فخذه اليسرى .

التاســـعة — وآختلف العلماء فيمن وضـــع جبهته فى السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثورىّ وأحمد، وهو قول النَّخَعِىّ . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر؛ وبه قال أبو خَيْثَمة[1] وآبن أبى شيبة . قال إسحاق : إن سجــد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز، ورُوى عن آبن عباس وســعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وآبن سِيرين والحسن البصرى؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال آبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال آبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح فى السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبى حُميد ، وقد تقدّم . وروى البخارى عن آبن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر " . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعى . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبى . وفى نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أى لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العـاشرة — و يكره السجود على كَوْر العمامة ؛ و إن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التى تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضـل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليـه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبـل دخوله فى الصلاة، فإن لم يفعـل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقِيب أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال فى الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يسـتطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحـادية عشرة — لمـا قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهـا ما يُسمّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة فى ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الأسم فى ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتـة فى إلغاء الصـلاة . قال ٱبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتـدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح فى الأثر، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر؛ وهى رواية ٱبن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القـاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن ٱبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لأبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فمـا لكم أنتم وقد ٱنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدّارَقُطْنِيّ وعليّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى ، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلمـا جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك ٱرجع فصلّ فإنك لم تصلّ" . قال همام[1] : فلا ندرى، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل:

---

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

ما أَلْوتُ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال : — لا تتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ »(1) . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعِيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد آختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال آبن عبد البر: وهذا قول صحيح؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ(2) بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث آبن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(1) راجع جـ ١١ ص ١٢١ . (2) الفذ : المنفرد .

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ وآحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه آبن المنــذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبيّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخص له ؛ فلما ولّى دعاه فقال : "[هل][1] تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال:"فأجب" . وقال أبو داود فى هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرجه من حديث آبن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العــذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منــه الصلاة التى صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على آبن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أصْبَغ ذكره فى كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق. وقال آبن مسعود: ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام: "بيننا و بين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال آبن المنذر : ولقــد روينا عن غير واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم آبن مسعود وأبو موسى الأشعرىّ . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

الله صلى الله عليــه وسلم : "لقد هَمَمت أن آمر فِتْيَتِى فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهــم ليست لهم عِلّة فأحرقها عليهــم" . هذا ما آحتج به من أوجب الصــلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة؛ بدليل حديث آبن عمر وأبى هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لآبن أم مكتوم: "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه هَمَّ ولم يفعل؛ وإنمــا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبــد الله قال : « مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم،ولو تركتم سُنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم؛وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هــذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهــا سيئة،ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنهــا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين(١) حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الآجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِيَاض : أُختلِف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصــلاته فى سوقه بضعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُهُ(٢) إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخط خُطوة إلا رُفع له بهــا درجةً

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه ؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبِسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيـه يقولون اللّهُمّ ارحمه اللّهُمّ اغفرله اللّهُمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه ". قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — وآختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة ، هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنمـا يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد ؛ لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث ؛ قولان . والأول أظهر ؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وآختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال آبن حبيب : نعم؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله" . رواه أُبَيّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — وآختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنمـا يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهلِه أو فى غير بيتـه، وأمّا من صلّى فى جماعة و إن قَلّت فإنه لا يعيد فى جمـاعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل و إسحاق بن راهَوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمَـان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبِى والنَّخَعِى، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

آحتج مالك بقوله صلى الله عليـه وسلم : "لا تُصلّى صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلوا . رواه سليمان بن يَسار عن آبن عمر . وآتفق أحمـد و إسحاق على أن معنى

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُنّة أو تطوّع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنها لكم نافلة" . من حديث أبى ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلَمُهم بالسُّنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سـواءً فأقدَمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ،ولا يقعد فى بيتـه على تَكْرِمته إلا بإذنه" وفى رواية "سِـنًّا" مكان "سِلْماً" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أَذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّى به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّى صاحب البيت . قال آبن المنذر : رَوَينا عن الأشعث آبن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم آبن سِيرين والثورىُّ و إسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال آبن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك: يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، و إن للسنّ حقّاً . وقال الأوزاعىّ: يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن، وقد كان مِن عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ وآستدلّوا بتقديم النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم وإن كان أصغركم وإذا أمكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبي هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال : كنا بماء مَمَرِّ[1] الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرّ[2] في صدري ؛ وكانت العرب تَلَوَّم[3] بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبي الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا في حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر مني قرآنا لما كنت أتلقى من الركبان ، فقدّموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت عليّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصتْ عني ، فقالت امرأة من الحيّ : ألا تغطّون[4] عنا اسْتَ قارئكم ! فاشتروا فقطعوا لي قميصا ، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبي غير البالغ الحسنُ البصري وإسحاقُ بن راهَوَيْه ، واختاره ابن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله في جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤمّ القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو ابن سلمة . وقال الشافعي في أحد قوليه : يؤمّ في سائر الصلوات ولا يؤمّ في يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته في المكتوبة أجزأت إمامته في الأعياد ، غير أني أكره فيها إمامة غير الوالي . وقال الأوزاعي : لا يؤمّ الغلام في الصلاة المكتوبة حتى يحتلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شيء فإنه يؤمهم الغلام المراهق . وقال الزهري : إن اضطروا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثوريُّ وأصحابُ الرأي .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على استقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن في أمّ القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، ويجوز فتحها ؛ أي موضع مرورهم .　　(٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفي رواية « يقرا » بألف مقصورة أي يجمع ، أو بهمزة من القراءة . وفي رواية « يغرى » أي يلصق .
(٣) تلوّم : تنتظر .　　(٤) في الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له .

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ويضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ وإن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته ؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأم مثلَه . ولا يجوز الائتمام بآمرأة ولا خُنْثَى مُشْكل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أمّى، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء، على ما يأتى ذكره، إلا الأُمِّىّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأُمّىّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أمّياً مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأُمّىّ بقوم يقرءون و بقوم أميين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كلًّا مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا؛ لأن كلا مؤدّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلّى][1] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . و إن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت آمرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشَلّ والأقطع والخِصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال آبن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم آستخلف آبن أم مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونَظَراً ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان آبن عباس وعتبان آبن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى؛ وعليه عامّة العلماء .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

التاسعة عشرة — وآختلفوا فى إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزُّهرى والنَّخَعِىّ وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق. وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحبّ إليهم. وقال الشافعى: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزاه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شىء. ونحوه قال آبن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلاً للإمامة. قال آبن المنذر: يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤم القومَ أقرؤهم". وقال أبو عمر: ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين.

الموفية عشرين — وأما العبد فروَى البخارىّ عن آبن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبى حُذيفة وكان أكثرهم قرآنا. وعنه قال: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف. قال آبن المنذر: وأمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص فى إمامة العبد النَّخَعِىُّ والشعبىُّ والحسنُ البصرىّ والحكمُ والثورىُّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأصحابُ الرأى؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه. قال آبن المنذر: العبد داخل فى جملة قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: "يؤم القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروَى البخارىّ عن أبى بكرة قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم

آمرأة" . وذكر أبو داود عن عبـد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذّنا يؤذّن لها وأمرها أن تؤم أهـل دارها . قال عبـد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال آبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور: لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المُزَنِىّ .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى آبن أَيْمَن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنْثَى المشكل فقـال الشافعى : لايؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيـة والعشرون — الكافر المخـالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمـد يقولان : لا يجزئهم و يعيدون . وقاله مالك وأصحابه؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثَور والمُزَنِىّ لا إعادة على مَن صلى خلفه، ولا يكون بصلاته مسلمًا عنـد الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن: صلّ، وعليه بدعته . وقال أحمد: لايصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك: ويصلى خلف أئمة الجَور، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال آبن المنذر: كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعـة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال آبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تَؤمَّنّ آمرأة رجلا ولا يَؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يَؤمّنّ فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدْعان عن سعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكّوا صلاتكم فقـدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدّارَقُطْنِي . وقال فيه أبو أحمد بن عَدِىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " آجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدٌ فيما بينكم و بين الله " . قال الدّارقطني : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنما جُعل الإمام لِيُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فآركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فآسجدوا و إذا صلى جالسا فصلوا جلوسًا أجمعون " .

وقد آختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر، ورُوِىَ عن آبن عمر . ذكر سُنيد قال حدّثنا آبن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال: صلّيت إلى جنب آبن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ آبن عمر بيـدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبـله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد:

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعــل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته ؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة ، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها و إن أسقط بعض سننها ؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه ؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد ٱقتدى و إن كان يرفع قبله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسىء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ٱبن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام ؛ لأن الإتبــاع الحسيّ والشرعي مفقود ، وليس الأمر هكذا عنــد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأوّل ؛ فإن الإمام إنمــا جُعل ليؤتم به ويُقتدَى به بأفعاله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا »(1) أى يأتمّون بك ؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا ، فمن خالف إمامه لم يتبعه ؛ ثم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : " إذا كبّر فكبّروا " الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب ، وهو المبيِّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : " أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار " . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنمــا ناصيته بيد شيطان . وقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " كلُّ عملٍ ليس عليــه أَمْرُنا فهو ردٌّ " . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالمــا بأنه مأمور بٱتباعه منهيّ عن مخالفته فقــد ٱستخف بصلاته وخالف ما أُمر به ؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك ؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهياً قبل الإمام فقال مالك رحمــه الله : السُّنّة فيمن سهــا ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعــله ؛ لأن النبيّ صلى الله عليــه وسلم قال : " إنمــا جُعل الإمام ليؤتم به

(1) راجع جـ ٢ ص ١٠٧

فلا تختلفوا عليه" . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا، لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله » ؛ لأن الساهي الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِىَ عن الشافعيّ في أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر انصرف وأومأ إليهم — أي كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم ؛ فلما انصرف قال : "إني كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتي بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا »(1) في «النساء» إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبي مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة و يقول : "استوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ اختلافا . زاد من حديث عبد الله : "و إيّاكم وهَيْشات(2) الأسواق" . وقوله : "استوُوا" أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذي يلي الإمام، على ما يأتي بيـانه في سورة « الحجر »(3) إن شاء الله تعالى . وهناك يأتي الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — واختلف العلمـاء في كيفية الجـلوس في الصلاة لاختلاف الآثار في ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يُفْضي المصلّي بأَلْيَتَيْه إلى الأرض و ينصب رجله اليمنى ويَثْنِي رجله اليسرى ؛ لمـا رواه في مُوَطّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس في التشهد فنصب رجـله اليمنى وثنى رجـله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أراني هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثني أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤　　(2) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وارتفاع الأصوات .
(3) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقرءة بالحمـد لله رب العالمين، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّبه، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائمـا، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرُش رجلـه اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان يَنْهَى عن عُقْبـة الشيطان (١)، ويَنْهَى أن يفترِش الرجل ذراعيه آفتراش السَّبُع، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحـديث ــ والله أعلم ــ قال آبن عمر : إنمـا سُنَّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثَّورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صـالح بن حَىّ : ينصب اليمنى و يقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمـد وإسحـاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميـد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه ، و إذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصـابع رجليه القِبـلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجـله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا لحسن، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين ــ مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة؛ فلما آنصرف نهانى فقال : آصنع كما كان رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يصنع؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال آبن الأثير : « هو أن يضـع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبد البر : وما وصفه ابن عمر من وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بها ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مُجمَعٌ عليه، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها، وحسبك بهذا . إلا أنهم اختلفوا في تحريك أصبعه السبابة، فمنهم من رأى تحريكها، ومنهم من لم يره . وكل ذلك مرويّ في الآثار الصحاح المسندة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيه : قال : " هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه و يقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود في حديث ابن الزبير أنه عليه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . وإلى هذا ذهب بعض العراقيين، فمنع من تحريكها . و بعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها، إلا أنهم اختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين؛ تأوّل مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة ؛ وبأنها مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عند التلفظ بكلمتي الشهادة، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد، والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة، فقال مالك : هي كالرجل، ولا تخالفه فيها بعد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوريّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعيّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لها . وهو قول الشَّعبي : تقعد كيف تيسر لها . وقال الشافعيّ : تجلس بأستر ما يكون لها .

الثانيــة والثلاثون ـــ روى مسلم عن طاوس قال : قلنـا لآبن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال: هى السُّنّة ، فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال آبن عباس : [بل](١) هى سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد آختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال آبن عبد البر : وهذا إقعاء مجتمَع عليه لا يختلف العلماء فيــه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضي عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه آبن عباس إنه من السُّنّة؛ الذى فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّرا عن آبن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضى : وقد رُوى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه؛ ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوْه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن مَعمر عن آبن طاوس عن أبيه أنه رأى آبن عمر وآبن عباس وابن الزبير يَقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون ـــ لم يختلف من قال من العلمــاء بوجوب التسليم و بعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حَىّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال آبن عبد البر : مِن حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا ـــ وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته ـــ قولُه صلى الله عليه وسـلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسـلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها آسم تسليم .

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولمـا كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[1] السنن الثابتة من حديث آبن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمىّ وحديث عمّـار وحديث البَرَاء بن عازب وحديث آبن عمر وحديث سعد بن أبى وَقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى آبن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز آبن محمد الدّراوَرْدِىّ كلُّهـم عن عمرو بن يحيى المـازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لآبن عمر : حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسـه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال آبن عبد البر : وهـذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهـو عمل قد توارثه أهـل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لايخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا. وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عنـدهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هـذا المجرى فهو آختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجـاز ولا بالعـراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بـل ذلك عندهم معـروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سـعد بن أبى وقّاص وعائشة وأنس ؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعـة والثلاثون — روى الدّارَقُطْنِىّ عن آبن مسعود أنه قال : من السُّنة أن يخفى التشهّد . وآختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبـده ورسوله . وآختـار الشافعى وأصحابه واللَّيث بن سعد تشهّد آبن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) فى نسخة : « توازت » .

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رســول الله ". وآختار الثّـورى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد آبن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله ، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله][1] صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء ". وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد آبن مسعود . وهذا كله آختلاف فى مباح ليس شىء منــه على الوجوب ، والحمد لله وحده . فهــذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »[2] . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتى فى « آل عمران »[3] حكم صــلاة المريض غير الامام ، ويأتى فى « النساء »[4] فى صــلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتى فى ســورة « مريم »[5] حكم الامام يصــلى أرفع من المأموم، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد تقدّم فى أول السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك .

قوله تعـالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

(١) الزيادة عن مسلم . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١١

(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع جـ ١١ ص ٨٥

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا آستفهام معناه التوبيخ ، والمراد فى قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال آبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه و بينه رضاع من المسلمين : آثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك به هـذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون النـاس بذلك ولا يفعلونه . وعن آبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بآتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها فى جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعـاصى . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصـدقة ويبخلون . والمعنى متقـارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعانى وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيـــة — فى شدّة عذاب مَن هــذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أُسرى بى مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار (1) ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسوْن أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون النـاس بالبر وينسوْن أنفسهم يجرّون قُصْبهم (2) فى نار جهنم فيقـال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر النـاس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن فى سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك آبن مَعين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صُـدىّ بن عجلان الباهلى ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوّر القرشى مولى خالد بن عبد الله آبن أسـيد . وقيل : مولى باهلة . وقيـل : مولى عبد الرحمن الحضرمى ، كان يختلف إلى

(1) كذا فى مسند الإمام أحمـد بن حنبل (جـ ٣ ص ١٢٠) وتفسـير الفخر الرازى (جـ ١ ص ٤٩٦) . وفى الأصول : « من أمتك » .
(2) سيأتى معنى « القصب » .

الشام فى تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقــد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : " يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النــار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى][1] فيجتمع إليــه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن][1] تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعــه أقصاب . والأقتاب : الأمعــاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمــا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيــام بوظيفة كل واحد منهما أشــدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنمــا ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ النــاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمــه " . أخرجه ابن ماجه فى سُننه .

الثالثــة ــ اعلم وفّقك الله تعــالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذمّ الله تعــالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بهــا ؛ وبخهم به توبيخًا يُتْــلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إنّ قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعــلونا
لمجانين وإن هــم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

وقال أبو الأسود الدُّؤَلِيّ :

لا تَنْــهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مثــلَه * عارٌ عليــك إذا فعلتَ عظــيمُ
وٱبدأ بنفسِــك فٱنهها عن غيّها * فإن ٱنتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى * بالقول منــك وينفع التعلــيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد فخرج وقعــد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس : ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تَقِيٍّ يأمر النــاس بالتُّــقَى * طبيبٌ يداوى والطبيبُ مريضُ

قال : فٱرتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعــة — قال إبراهيم النَّخَعِيّ : إني لأكره القَصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »(1) ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »(2) . وقال سَلْم بن عمرو(3) :

ما أقبحَ التزهيــدَ من واعظٍ * يُزَهِّــد الناسَ ولا يَزْهَــدُ
لو كان في تزهيده صــادقا * أضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه * يَستمنح النــاس ويسترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من تَرَى * ينــالُه(4) الأبيضُ والأســودُ

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله : عِظ أصحابك؛ فقال إني أخاف أن أقول مالا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالك عن ربيعــة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيــه شيء ، ما أمر

(1) راجع جـ ١٨ ص ٧٧ (2) راجع جـ ٩ ص ٨٩ (3) كذا في الأصول . والصحيح أن الأبيات للجماز، وهو ٱبن أخت سلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغاني (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .
(4) كذا في الأغاني . وفي الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه شىء (١) ! .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . والبِرّ : الصدق . والبِرّ : ولد الثعلب . والبِرّ : سَوق الغنم؛ ومنه قولهم : « لا يعرف هِرًّا من بِرٍ » أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها . فهو مشترك؛ وقال الشاعر :

لاهُمّ رَبِّ إن بكرا دونكا (٢) * يَبَرُّكَ الناسُ ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرّك الناس » : أى يطيعونك . ويقال : إن البِرّ الفؤادُ فى قوله :

أكون مكان البِرّ منه ودونه (٣) * وأجعل مالى دونه وأُوامِرُه

والبُرّ (بضم الباء) معروف، و (بفتحها) الإجلال والتعظيم؛ ومنه ولد بَرٌّ وبارّ؛ أى يُعظّم والديه ويكرمهما .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك؛ وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (٤) »، وقوله : « فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (٥) »، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (٦) » . ويكون خلاف الذِّكر والحفظ؛ ومنه الحديث : " نَسِىَ آدمُ فنسيَتْ ذريّتُه " . وسيأتى . يقال : رجل نَسْيان (بفتح النون) : كثير النِّسيان للشىء . وقد نَسِيت الشىء نِسْيانًا، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرْق . وأنفس : جمع نَفْس، جمع قِلّة . والنَّفْس : الروح ؛ يقال : خرجت نَفْسُه، قال أبو خِراش :

نجا سالم والنَّفْس منه بِشِدْقِهِ * ولم يَنْجُ إلا جَفْنَ سَيفٍ ومِئْزرا

أى بجفن سيف ومئزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٧) » يريد الأرواح ؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

(١) فى نسخة : «عليه» . (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : « بكوا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » . (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة «برر» . وفى شرح القاموس :

* يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨
(٧) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠

بيّن فى قول بلال للنبيّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث آبن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك، وهو أولى ما يقال به . والنّفْس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر[(1)] :

تسيل على حدّ السّيوف نفوسُنا[(2)] * وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر[(3)] :

نُبِّئتُ أن بنى سُحَيم أدخلوا * أبياتَهم تامورَ نَفْسِ المُنذرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُون» : تقرءون . «الكتاب» : التوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الآتباع، ولذلك آستعمل فى القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حق تُلاوة وتَلِية؛ أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتلّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلِّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتل الجانى . ومنه آعتقال البطن واللّسان . ومنه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغَشّى به الهوادج؛ قال عَلْقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : « حد الظبات » . (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرّض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ٱبن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا، وما كان نقشــه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بمــا أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاســـعة — ٱتفق أهــل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقــديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لمــا ٱختصّ بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقــد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهــم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم ٱختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محــله القلب ، لأن القلب معدن الحيــاة ومادة الحواس . وهــذا القول فى العقل بأنه جوهر فاســد ، من حيث إن الجواهر متمــاثلة؛ فلوكان جوهر عقلا لكانــ كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهــذا القول وإن كان أقرب ممــا قبله فيبعد عن الصواب من جهــة أن الإدراك من صــفات الحىّ ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو إسحــاق الأسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم ، بدليل أنه لا يقال : عقَلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو ٱختيار أبى المعــالى فى الإرشاد ؛ وٱختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بهــا دَرك العلوم . وٱعترض على مذهب القاضى وٱستدل على فساد مذهبــه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبـد الله بن مجاهـد أنهما قالا : العقـل آلة التميز . وحكى عن أبي العباس القَلَانسيّ أنه قال : العقل قوة التميز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتّب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعيّ ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة[1] واستعمالها في الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة، والقلانسيّ أطلق ما أطلقه توسُّعاً في العبارات، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتي في هذه السورة بيان فائدته في آية[2] التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ الصبر : الحبس في اللغة . وقُتِل فلان صَبْراً ، أي أُمسِك وحُبِس حتى أُتلف . وصَبَرْتُ نفسي على الشيء : حبستها . والمصبورة التي نُهِي عنها في الحديث هي المحبوسة على الموت، وهي المُجَثَّمة . وقال عنترة :

فصَبَرْتُ عارفـةً لذلك حُرّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطلّعُ

الثانيــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة في كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصي ؛ وإذا صبر عن المعاصي فقـد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر؛ إنمـا يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[3] » .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿وَٱلصَّلَاةِ﴾ خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه[4] أمرٌ فَزَع إلى الصلاة؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) في بعض نسخ الأصل : « في الآلة المبنية » .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ .
(٤) حزبه : أي نزل به مُهم أو أصابه غم .

ابن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله . ثم تنحّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم: هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ »؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم ؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر ، فجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد فى الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبيـاء والصالحين . قال يحيى بن اليَمَـان : الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك . وقال الشعبيّ : قال علىّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبرى: وصدق علىّ رضى الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب و إقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »(١) . وجعــل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »(٢) الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(٣) . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ » أى الصائمون؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الصيام لى وأنا أجزِى به" فلم يذكر ثوابا مقدّرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

السادســـة — مِن فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفســه به؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس أحد أو ليس شيء أصبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهــم و يرزقهم" . أخرجه البخارى . قال علمــاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمــا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصــفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوّله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله ٱبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأوّلون فى عود الضمير من قوله : « و إنهــا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظــر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصــلّى يمتنع من جميع ذلك ، فجوارحه كلها مقيّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصــلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشــدّ ، فلذلك قال : « و إنّها لَكبِيرةٌ » . وقيــل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ »(١) ، وقوله : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »(٢) . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم، وإلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمــا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »(٣) . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

إنّ شَرْخَ الشّبابِ والشَّعَرَ الأسـ ✽ ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧		(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣		(٤) هو حسان بن ثابت .

ولم يقل يعاصيا ، ردّ إلى الشباب لأن الشَّعَر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف آختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا آبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »(١) ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر(٢) :

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقَيَّارٌ بها لغـــريبُ

وقال آخر(٣) :

لكلّ همّ من الهمـــوم سَـعَهْ * والصُّبْحُ والمُسْىُ لا فلاح مَعَهْ

أراد : لغريبان، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر، وهى الآستعانة التى يقتضيها قوله : «وآستعينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة ممـا كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنمـا هو إليها . « وكبيرةٌ » معناه ثقيلة شاقة، خبر « إنّ » . ويجوز فى غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أُيِّد فى الأزل بخصائص الأجتباء والهدى .

الثامنــــة ـــ قوله تعالى : ﴿عَلَى الخَـاشِعِينَ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ ككُحْل العين لأْيًا أُبِيِّنه * ونؤىٌ كجِذْم الحوض أَثْلَمُ خاشعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدَى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِىُّ صدره إذا ألقى بُصاقًا لزِجًا . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْـعة : قطعة من الأرض رِخـوة ؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على المـاء ثم دُحيت بعد"(٤) . وبلدة خاشعة : مغـبرّة لا منزل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ (٢) هو ضابئ البرجمى ؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (جـ ١ ص ١٨١) طبع أوربا . (٣) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٤) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على المـاء فدحيت منها الأرض » .

بها . قال سفيان الثورى : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثورى، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع، فقال : أُعَيْمِش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض أفترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال على بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم، وألّا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»[(1)] . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما فى قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده؛ لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »[(2)] .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدّبًا متذللًا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك؛ وأما المذموم فتكلّفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا، وخاشعا حقًّا . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» فى موضع خفض على النعت للخاشعين، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[(3)] وقوله : «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»[(4)] . قال دُرَيد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَىْ مدجّج * سَرَاتُهُم فى الفارسىّ المُسَرَّدِ

(1) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢ (2) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (3) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠ (4) راجع جـ ١١ ص ٣

وقال أبو دُواد :

رُبَّ هَمٍّ فرّجتــه بغــريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه، ويضمر فى الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقّعون لقــاءه مذنبين؛ ذكر المهدوِىّ والمــاوَرْدِى . قال ابن عطية : وهــذا تعسُّف . وزعم الفَرّاء أن الظنّ قــد يقع بمعنى الكذب، ولا يعرف ذلك البصريون . وأصــل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع موقع اليقين، كما فى هذه الآية وغيرها، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحِسّ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هــذا إنسانا . وإنمــا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحِسّ بعــد؛ كهذه الآية والشــعر، وكقوله تعــالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجىء اليقين بمعنى الظن، وقد تقدّم بيــانه أوّل السورة . وتقول : سُــؤت به ظنّا، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربّهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُــمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْــهِ ﴾ أى إلى ربهم، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى .

قوله تعــالى : يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعــالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم (١) . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمِى زمانهم، وأهل كل زمان عالَم . وقيل: على كل العالمين بمــا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعــالى : وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أمرٌ معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام في التقوى[1] . « يوماً » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وٱنتصب على المفعول بـ«ٱتقوا» . ويجوز في غير القرآن يوم لا تجزى، على الإضافة . وفي الكلام حذف بين النحويين فيه ٱختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيـه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه؛ كما قال :

* ويوماً شهدناه سُلَيماً وعامراً[2] *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائي : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وٱتقوا يوما لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذى تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفَرّاء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوى أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » : أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنّى هـذا الأمر يَجْزِى؛ كما تقول : قَضَى عنى . وٱجتزأت بالشيء ٱجتزاء إذا ٱكتفيت به؛ قال الشاعر :

فإنّ الغـدر فى الأقوام عارٌ * وأن الحرّ يَجزأ بالكُراع

أى يكتفى بهـا . وفى حديث عمر : " إذا أجريت المـاء على المـاء جَزَى عنـك " . يريد إذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحـديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأُضحِيّة : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهـا شيء؛ فإن كان فإنهـا تجزى وتقضى وتغنى ،

---

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء . (٢) سليم وعامر : قبليتان من قيس عيلان .

بغير آختيــارها من حسناتها ما عليهــا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنــده مَظلِمة لأخيــه من عِرْضه أو شىءٌ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلِمته و إن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلِس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم (١) . وقرئ « تُجزِئ » بضم التاء والهمز . و يقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمرِ العالمين ولم يكن * ليجزئَ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثـــة (٢) — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الآثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشفعتُه شَـفْعًا؛ والشُّفْعة منــه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفْعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعًا . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليــه فى فلان فشفّعنى فيــه؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعـــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعيــن من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقــد تمسّك القاضى عليهــم فى الردّ بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّى هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم ، باب تحريم الظلم (ج ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور روايتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار ؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »(١) ، « ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل مَن يعمل سوءا وكل نفس ، و إنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »(٢) وقال : «وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى»(٣) وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ»(٤) . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ولَا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن و إن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلّدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها ، و بدليل قوله : « و يَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »(٥) ، وقوله : « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى « ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضًى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى، و إنما قال : « لِمَنِ ارْتَضَى» ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون؛ بدليل قوله : « لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »(٦) . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا" . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا: المرتَضَى هو التائب الذى اتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم؛ وقال : « فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر. قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦　(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥　(٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥　(٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

فإذا قبــل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشــفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميــع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليــه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنمــا يطلب كل مسلم شفاعة الرسول و يرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما ٱفترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب و يرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعــالى — فقيل : ولا أنت يا رســول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسُن التذكير، لأنك قد فرّقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »(١) .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فِداء. والعدل (بفتح العين) : الفِداء، و(بكسرها): المِثْل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . و يقال : عَدْلُ الشيء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا و إن لم يكن من جنسه . والعِدل (بالكسر) : هو الذى يساوى الشيء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبريّ : أن من العــرب من يكسر العين من معنى الفِدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصر : العَوْن. والأنصار: الأعوان؛ ومنــه قوله : « مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ »(٢) أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وٱنتصر الرجل : ٱنتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر(٣) :

(١) راجع ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (٣) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعِى * بلادَ تميم وٱنْصُرِى أرضَ عامرِ

والنصر : المطر؛ يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء؛ قال :

إنى وأَسْطارٍ سُطِرن سطرًا * لقــائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنـا آباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعـالى عن يوم القيامة أنه لاتقبل فيــه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعـانى التى آعتادها بنو آدم فى الدنيا؛ فإن الواقع فى الشدّة لايتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤٩)

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « آذكُرُوا نِعْمَتِىَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوّكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للموجودين والمراد مَن سـلف من الآباء؛ كما قال : « إِنَّا لَمَّـا طَغَى الْمَـاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ »(١) أى حملنا آباءكم . وقيل : إنمـا قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سـببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْـوَة من الأرض ، وهى ما آرتفع منهـا . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمِّىَ كل فائز ناجيًا . فالنّاجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نَجَّيْتُكم » على التوحيد .

الثـانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار؛ سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينــه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسـلم فاطمة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ .

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » أى آل دينه؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة (١) . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحّد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ابن نوح : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » (٢) . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهارًا غيرَ سِرّ يقول : " [ألا] (٣) إنّ آلَ أبى — يعنى فلانا (٤) — ليسوا [لى] (٣) بأولياء إنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين " . وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذريّتُه خاصة ؛ لحديث أبى حُميد السّاعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلّى عليك ؟ قال : " قولوا اللّهمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد " . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأوّل أصح لمـا ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبى أَوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهمّ صلّ عليهم " فأتاه أبى بصدقته فقال : " اللّهمّ صلّ على آل أبى أَوْفَى " .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال فى البـلدان هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعنى فلانا . وروى "ألا إن آل أبى فلان" . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة ، خشى أن يسميه فيترتّب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل إن المكنّى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . راجع سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعـــة — وآختلف النحاة أيضا هـل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ؛ فلا يقال إلا اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم آبن السِّيد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبــد يمـ * ـنع رَحْلَه فآمنــع حِلالك(١)
وآنصـــر على آل الصّـليـ * ـب وعابديه اليـــومَ آلك

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقــةَ آلِكَا .

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامســـة — وآختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصـله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدَوِى : أصله أَوْل . وقيل : أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون ، وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان: إذا جمعت آلًا قلت آلون؛ فإن جمعت آلًا الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ «فرعون» قيل : إنه آسم ذلك المَلِك بعينه . وقيــل إنه آسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة . وإن آسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : آسمه الوليد آبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيــة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة ؛ وقد تفرعن،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هذه الأمة " . « وفرعونَ » في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ يَسُـومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أَوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو آبن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا * أَبَينـا أن نُقرّ الخسف فينـا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سـائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[1] ، و إن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ« يسومونكم » ومعناه أشدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتاً؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصِنف يحرثون و يزرعون، وصِنف يتخدّمون — وكان قومه جندا ملوكا — ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ «يذبحون» بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال — أنشده سيبويه — :

مَتَى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا * تجِـد حطباً جَزْلًا ونارًا تأجّجـا

قال الفَرّاء وغيره : «يذبحون» بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونكم سُـوءَ العذابِ » كما تقول : أتانى القوم ز يد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو فى ز يد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ[2] » ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

---

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، و يحتمل أن تكون فى موضع الحال؛ أى سائميكم » .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

يعـذّبونكم بالذّبح و بغير الذّبح . فقوله : « وَيُذَبِّحُون أبناءَكم » جنس آخر من العذاب، لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقـرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمـّا أجزنا ساحة الحيّ وآنتحى *

أى قد آنتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وآبن الهمام * وليثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم آبن الهمام ليث الكتيبة ، وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ آبن مُحَيْصِن «يَذْبَحون» بفتح الباء . والذَّبح : الشّق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح ، وهو إذا جاء السيل نخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقى البنات ، وعبّر عنهم بآسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبّحون أبناءكم » يعنى الرجال ، وسُمُّوا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وآستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المـأخوذ به .

قلت : وقد آختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النَّخَعِىّ ؛ وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَيْن معًا ، و إن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المـأمور

قولان : أحدهما — أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه ٱبن المنذر. وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر و يخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتَلِماً ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبيّ نصف الدية . وقال ٱبن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده — و إن كان أعجميًّا — بقتل إنسان . قال ٱبن حبيب : و بقول ٱبن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمـور دون الآمر ، و يُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد فى السيّد يأمر عبـده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هـذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : ويُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد و يُضرب ويؤدّب . وقال الثورىّ : يُعَزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبـد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبـد فصيحا يَعقِل قُتل العبد وعُوقب السـيد ؛ و إن كان العبـد أعجميًّا فعلى السيّد القَود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتَـل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس — وهو القول الثانى — و يقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحـمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجلَ بقتـل الرجل ؛ وذكره ٱبن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعـالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانيـة عشرة — قرأ الجمهور « يذبّحون » بالتشديد على المبالغـة . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذّبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِىَ قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أي وفي فعلهم ذلك بكم بلاء، أي آمتحان وآختبار. و ﴿ بَلَاءٌ ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى: « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البـلاء يكون حَسَنًا و يكون سيئا ، وأصله المِحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، و يبلوه بالبلوَى التي يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسّيئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِيّ . وقال قوم : الإشارة بـ«ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا في الخير؛ أي تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبـلاء هنا في الشر؛ والمعنى : وفي الذبح مكروه وآمتحان . وقال آبن كَيْسان : ويقال في الخير أبلاه الله و بلاه ؛ وأنشد :

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم　＊　وأبلاهمـا خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[(١)]

فجمع بين اللغتين . والأكثر في الخـير أبليته ، وفي الشر بلوته ، وفي الآختبار آبتليته و بلوته ؛ قاله النحاس .

قوله تعـالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ « إذ » في موضع نصب . و « فَرَقْنَا » فلقنا ؛ فكان كل فِرق كالطَّوْد العظيم، أي الجبل العظيم . وأصل الفَرْق الفصل ؛ ومنـه فَرْق الشّعر ؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أي يفصل ؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[(٢)] يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنـه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[(٣)] يعني يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[(٤)] أي فصّلناه وأحكمناه . وقرأ الزُّهْرِيّ : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أي جعلناه فرقا . ومعنى «بكم» أي لكم، فالباء بمعنى اللام . وقيل : البـاء في مكانها؛ أي فرقنا البحر بدخولكم إياه . أي صاروا بين المـاءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أوْلَى، يبيّنه « فآنفلق » .

---

(١) قائله زهير　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٥٣　(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠　(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٩

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ البحر معروف، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى مَنْدُوب فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : المـاء الملح . ويقال : أبحر المـاء : مَلُح؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْـــرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبْحَرَ المَشْربُ العذْبُ

والبحر : البلدة؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأموىّ . والبَحَر : السُّلال[(1)] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةَ بَحْرَةَ ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء، ممـدود، ونجاة، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يقال : غَرِق فى المـاء غَرَقًا فهو غَرِق وغارق أيضا؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ[(2)] *

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَق وغريق . ولجـام مغرّق بالفضة ؛ أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْساً غَرّقته القوابل[(3)] *

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط ، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرُّمة :

---

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أو زكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .

(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى المـاء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرَةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَلُوبَهَا

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثانى؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول فى ٱختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِىَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ »(١) . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف. وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى ٱنتهى إلى البحر؛ فقال له : ٱنْفَرِق؛ فقال له البحر : لقد ٱستكبرت ياموسى ! وهل فرَقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل: أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : فأقحم فرسه فسَبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِبْتَ؛ ثم ٱقتحم الثانيـة فسَبَح به حتى خرج؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقـال : ما أُمرتُ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٥ .

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ» فضربه موسى بعصاه؛ «فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ». فكان فيه آثنا عشر فِرقا، لآثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن آنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد[1]. ذكره آبن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سورة «يونس، والشعراء[2]» زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن آبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا اليوم الذى تصومونه" فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن آبن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم فصوموا".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه آقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لما روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخارىّ ومسلم.

---

(١) أى كنى موسى البحر. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٧ و جـ ١٣ ص ١٠٥.

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنمـا صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة؛ فلمـا قدم المدينـة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم" فصـامه آتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أى أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هـذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام»(1) عند قوله تعالى : «فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ» .

مسئلة — اختلِف فى يوم عاشـوراء؛ هل هو التاسـع من المحرّم أو العاشر؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : آنتهيت إلى آبن عباس رضى الله عنهما وهو متوسّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فآعدُد وأصبِحْ يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحَـكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن آبن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث آبن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذيّ : وروى عن آبن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحـاق . قال غيره : وقول آبن عباس للسائل : «فآعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا» ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسـع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث . وقول آبن عباس للحَكَم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش؛ وإلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيّنه ما خرّجه آبن ماجه فى سُننه ومسلم فى صحيحه عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السَّنة التي قبله". أخرجه مسلم والترمذيّ ، وقال : لا نعلم فى شيء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال، ومعناه بأبصاركم؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على المـاء فنظروا إليهم يغرقون، وإلى أنفسهم ينجون؛ ففى هذا أعظم المِنّة. وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر؛ كما تقول: هذا الأمر منك بمرأى ومسمع؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأوّل أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لمـا أنجاهم وغرق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غَرِق! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه.

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن(1) سمع الله تكذيبهم نبيـه عليه السلام، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا فى النعمة، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم؛ قالوا ياموسى ٱجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلٰهًا وهو فضّلكم على العالمين؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسـة فى أيدى الجبارين قد غُلبوا عليهـا فٱحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لَحْمَة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنـا . قال : « يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسمّـاهم فاسقين . فبقوا فى التِّيه أربعين سـنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسَّلْوَى وبالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْنَاء

(1) فى نسخة : « فلم يَعْدُ أن سمع الله ... » الخ .

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه (١) — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فآدخلوا البـاب سُجَّدًا وقولوا حِطّة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء ستّيرا ؛ فقالوا : إنه آدر (٢) . فلما آغتسل وضع على الحجر ثو به ؛ فعدا الحجر بثو به إلى مجالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثو بى! فذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه (٣) — ، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة (٤) — ، ثم سألوه أن يعلموا آية فى قبول قربانهم؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم؛ ثم سألوه أنْ بيّن لنـا كفارات ذنو بنا فى الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : «عملت كذا»، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرِضـه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وآفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وآشتروْا به عَرَضًا؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هــذه الفصول مستوفًى فى موضـعه إن شاء الله تعـالى . وقال الطبرى : وفى أخبـار القرآن على لسان محمد عليـه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العـرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

فيـه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣
(٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠
(٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هـذا وجدنا القرآن؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ » [١] وقوله : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» [٢] ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكيّ : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعد من موسى؛ فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وأبي جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبي إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِد صاحبه . قال الجوهري : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين، وقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب؛ قالوا: طارقت النّعل، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والاختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» في أحد معنييه، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة. قال النحاس: وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن، وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائي؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا في شيء؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة ؛ وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة، وموعدك موضع كذا . والفصيح في هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيّد؛ لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول واتباع يجري مجرى المواعدة . قال ابن عطية . ورجّح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى آسم أعجمي لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — ما يروى — يقولون للماء : مو، وللشجر : شا (١) . فلما وُجِد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمِّىَ موسى . قال السُّـدّى : لما خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليَمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليَمّ بين أشجار عند بيت فرعون؛ فخرج جوارى آسية آمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمِّىَ باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن آسم الذى آلتقطته صابوث . قال آبن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث آبن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله (٢) بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعيـــن نصب على المفعول الثـانى، وفى الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فآتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، فآطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » (٣) . فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا آثنـا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتهـا ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحـرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر ؛ فشربوا من مائه حُبًّـا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال آبن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول ، وآسم الجلالة زائد ، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله ، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

وورِمت بطونهم ؛ فتابوا ولم تُقبل توبتهم دون أن يَقتلوا أنفسهم؛ فذلك قوله تعالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى ٱرتفاع الضّحى؛ فقتل بعضهم بعضا ، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ؛ كل من ٱستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجّ موسى إلى الله صارخا : ياربّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبة مَن بقي وجعل مَن قُتل في الشهداء؛ على ما يأتى .

الرابعـــة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ؛ فالليالى أول الشهور والأيام تَبَع لها .

الخامســـة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نصّ على الليالى ٱقتضت قوّة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . قال ٱبن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرى رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا ٱستدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام[1] من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف[2] » زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه[3] » إن شاء الله تعالى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى ٱتخذتموه إلها من بعد موسى . وأصل ٱتخذتم ٱئتخذتم ، من الأخذ ، ووزنه ٱفتعلتم ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم، فٱضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ، وواوا فى موتخذ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

فبُدلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم آجتُلبت ألف الوصل للنطق، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا » فآستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير؛ قال الشاعر (١) :

أَسْتحدَثَ الرَّكبُ عن أشياعهم خَبَرًا * أم راجع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن « آتخذتم » ، من تخذ لا من أخذ. ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم (٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ أَلْبتَّةَ . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِيَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب؛ أى محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر؛ أى أذهبته . وعفا الشيءُ : كثر . فهو من الأضداد؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّيَ العجل عجلًا لآستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثله ، والجمع العجاجيل؛ والأنثى عِجْلة . عن أبى الجراح .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٣) . وأما الشكر فهو فى اللغــة الظهور؛ من قوله : دابة شَكور ؛ إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . وحقيقته الثنــاء على الإنسان بمعروف يُولِيكه . كما تقدّم

(١) هو ذو الرمة . (٢) راجع ص ٣٠٩ (٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

فى الفاتحة(١) . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بمـا أولاكه من المعروف؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكُفران . وتشكّرت له مثل شكَرت له . وروى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابى : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — فى عبارات العلمـاء فى معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : «ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً»(٢) . فقال داود : كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى ؛ إذ قد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا ربّ فأرنى أخْفَى نعمك علىّ . قال : يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السـلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السِّرىّ السَّقَطِىّ ألعب وأنا ابن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالهـا السِرىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسـنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصرىّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦

قوله تعـالى : وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

« إذا » آسم للوقت المـاضى . و « إذا » آسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[1] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأوّلين . وآختلف فى الفرقان ؛ فقال الفَرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشىء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحـاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء ؛ ومنه قول الشاعر :

وقَدَّمتِ الأدِيمَ[2] لراهِشَيْهِ * وألْفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[3] :

ألَا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدُ * وهندٌ أتى من دونها النَّأْىُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأى ، والمَيْنُ على الكذب ؛ لآختلاف اللفظين تأكيدا ؛ ومنه قول عنترة :

حُيِّيتِ مِن طَلَلٍ تقادمَ عهدُه * أقْوَى وأقفرَ بعـد أمّ الهيْـثَمِ

قال النحاس : وهذا إنمـا يجىء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال آبن زيد : الفرقان آنفراق البحـر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقانُ الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله آبن بحر . وقيل : الواو صـلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وآبن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

---

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : «ففددت الأديم» وهو لعدى بن زيد . والقد : القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ »(١) أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم و بين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بَدْر، نصر الله فيه محمدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابَه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم(٢) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقـــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نسـاءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبيّ مرسَـل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿يَا قَوْمِ﴾ منادًى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قَوْم» لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها؛ وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى؛ لأنهـا آسم وهى فى موضع خفض . و إن شئت فتحتها و إن شئت ألحقت معها هاء؛ فقلت : يا قوميَهْ . و إن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ؛ فقلت : يا قوما، و إن شئت قلت : يا قوم ؛ بمعنى يأيها القوم . و إن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت . وواحد القوم آمرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ٱستغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قروءٍ » . وقال: « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ قال بعض أرباب المعانى : عِجلُ كلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله.

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لما قال لهم : فتوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلِّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالماء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِىّ : لما قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا؛ حتى قيل لهم: كُفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحىّ؛ على ما تقدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل: قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقتلوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو ٱتقاه بيد أو رِجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعنى من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — ؛لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه؛ وإنما ٱعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله فى عباده إذا فشا المنكر ولم يُغَيَّر عوقب الجميع . روى جَرِير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب" . أخرجه آبن ماجه في سُننه . وسيأتي الكلام في هذا المعنى إن شاء الله تعالى . فلما آستحرّ (١) فيهم القتل و بلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله آبن عباس وعليّ رضي الله عنهما . وإنمـا رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود في قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هي أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة — ؛ أي آستقبلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ : الخالق ؛ و بينهما فرق ؛ وذلك أن البارئ هو المبدع المحدِث . والخالق هو المقـدِّر الناقل من حال إلى حال . والبَرِيّة : الخلق ؛ وهي فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز . وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» — بسكون الهمزة — ويشعركم وينصركم ويأمركم . وآختلف النحاة في هـذا ؛ فمنهم من يُسكن الضمة والكسرة في الوصل ؛ وذلك في الشعر . وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب في كلام ولا شِعر . وقراءة أبي عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة ؛ وأنشدوا :

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ أمثـالَ السَّفِينِ العُوَّمِ (٢)

وقال آمرؤ القيس :

فاليومَ أشـربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثمـا من الله ولا واغِـلِ (٣)

وقال آخـــر :

* قالتَ سُليمَى آشترْ لنـا سَوِيقا *

وقال الآخـــر :

رُحتِ وفي رجليـك ما فيهما * وقد بدا هَنْـك من المِئزرِ

---

(١) استحرّ : اشتدّ وكثر . (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو) : الصحراء . وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر . (٣) المستحقب : المتكسب . والواغل : الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه . يقول هـذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها ، إذ وفى بنذره فيها .

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجّته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو علىّ: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشيء من الشيء وهو آنفصاله منه.. فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءًا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز. وغيرهم يقول: بَرِئت من المرض بُرْءًا (بالضم)؛ و برئت منك ومن الديون والعيوب براءة؛ ومنه المبارأة للرأة. وقد بارأ شريكه وآمرأته.

قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فى الكلام حذف، تقديره ففعلتم «فتاب عليكم»؛ أى فتجاوز عنكم، أى على الباقين منكم. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١) تقدّم معناه، والحمد لله.

قوله تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ معطوف. ﴿يا مُوسَى﴾ نداء مفرد. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أى نصدّقك. ﴿حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ قيل: هم السبعون الذين آختارهم موسى؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ». والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم. فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ». وستأتى قصة السبعين فى الأعراف (٢) إن شاء الله تعالى. قال آبن فُورَك: يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام.

وقد آختُلِف فى جواز رؤية الله تعالى؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيا والآخرة. وأهل السُّنّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة؛ فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

محالا؛ وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و«الأعراف»[(١)] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عِيانا؛ قاله آبن عباس . وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة؛ أى غير مستتر بشىء . وقرأ آبن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما ــ أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى ــ أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعِيانا؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قد تقدّم فى أوّل الســورة معنى الصاعقة[(٢)] . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة آبن مُحَيْصِن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لآستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا آحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، وآحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ،والمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيـل : ماتوا مَوْتَ همودٍ يعتبر به الغير ، ثم أرسـلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها ، أى حركتها؛ قال آمرؤ القيس :

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيان صدْق قد بعثتُ بسُحرة[1] * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنــترة :

وصحــابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها[2]

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأوّل أصح ؛ لأنّ الأصــل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» . على ما يأتى[3] .

الخامســـة — قال المــاوَرْدِىّ : واختُلِف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل مِن تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأوّل أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك ممــا اضطرهم إلى الإيمــان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمــانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .		(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليـه السلام : " إنه ليُغان على قلبي " . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليـه . والغَيْن : شجر ملتفّ . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعـل هـذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، و ينجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لما آمتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ، وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(١) . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص(٢) أربعين سنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهـار كله و ينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . و إذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسط محلّتهم . وذكر مكّى : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبلى لهم ثوب ولا يخلَق ولا يدرَن ، وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلِف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيـل : الترنجبين(٣) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، و يقال : الطّرنجبين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنبّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى مِن جنس مَنّ

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٨ (٢) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (٣) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلُّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ، فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدخر منـه شيئا فسد عليه ، إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شىء .

الثالثـــة ــ لمـا نصّ عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى آستعمالها بحتًا فى جميع مرض العين . وهذا كما آستعمل أبو وَجْزَة العسلَ فى جميع الأمراض كلّها حتى فى الكحل ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل »(١) إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن آثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة ــ بالتاء ــ على عكس شجرة وشجر . والمنّ آسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلِف فى السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال آبن عطية : السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلى(٢) فقال :

وقاسمهـا بالله جَهْـدًا لَأَنْتُمُ　　*　　ألذّ من السّلوى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرِّج(٣) أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ، وآستدلّ ببيت الهذلىّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّىَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان(٤) ، وأنشد :

لو أشرب السُّـلوان ما سَلِيتُ　　*　　ما بى غِنًى عنـك وإن غَنِيتُ(٥)

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦　　(٢) هو خالد بن زهير .　　(٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسى ، و يكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمـد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة .　　(٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها و يستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) .　　(٥) البيت لرؤبة .

وقال الجوهري : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَلي :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّـلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُـلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديد العيش يا مَيَّ ما أسْلُو

وآسم ذلك المـاء السُّلوان . وقال بعضهم : السـلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطبـاء يسمونه المُفَرِّح . يقال : سَليت وسلوْت ؛ لغتان . وهو فى سُلوة من العيش ، أى فى رغد ؛ عن أبى زيد .

الخامســة — وآختُلِف فى السَّـلْوَى هل هو جمع أو مفـرد ؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثـل الخير والشر ؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته ؛ كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجماعة ، وسُمَانَى وشُكاعَى[2] فى الواحـد والجميع . وقال الخليـل : واحده سَلْواة؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكـرك هِزّةٌ[3] * كما آنتفض السَّلْواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادســة — «السَّلْوَى» عطفٌ على « المنّ »،ولم يظهر فيه الإعراب،لأنه مقصور. ووجب هذا فى المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقرّ له ؛ فأشبه الحركة فآستحالت حركته . وقال الفـرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السـابعــة — قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ « كلوا» فيه حذف،تقديره وقلنا كلوا؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ أى المدينة؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرّت أى آجتمعت؛ ومنه قَرَيت المـاء فى الحوض؛ أى جمعته؛ وآسم ذلك المـاء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل المـاء . والقرَا للظهر؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِــقُ بطنٍ بِقَــرًا سمينِ *

والمقارِى : الجِفان الكبار؛ قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّع *

وواحد المقارى مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . وآختُلف فى تعيينها؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أرِيحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شَبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . آبن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البـلدة وأزال عنهم التِّيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال؛ فقال : « بقرا سمين » . و اللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و ﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واسـعًا ، وهو نعت لمصدر محذوف ، أى أكلًا رَغَدًا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَـابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ، وقد قالوا : أَبْوِبَة للازدواج ؛ قال الشاعر[(1)] :

هتّـاك أخبيةٍ ولّاج أبوِبَة * يَخلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللّينا

ولو أفرده لم يجـز . ومثله قوله عليه السلام : " مرحبا بالقوم ــ أو بالوفد ــ غير خَزَايا ولا نَدامَى " . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة ؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شىء من بابَتِك ؛ أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود[(2)] فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أُمِروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة » ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى و بنو إسرائيل . و « سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامســـة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و ﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور ، على إضمار مبتدأ ، أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت «حِطّةً» بالنصب ، على معنى احطط عنـا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديث[(3)] عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفى حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة ــ تفسير للنصب ؛ أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى فى اللغة ؛ لمـا حكى عن العرب فى معنى بدّل ، قال أحمـد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أى غيرته ولم أزل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه ؛ كما قال[(4)] :

* عَزْلَ الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(1) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (2) راجع ص ٣٤٥ .
(3) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و«الحديث» مبتدأ ، وخبره « تفسير » . (4) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث (١) آبن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمِروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم . وقال آبن جبير : معناه الآستغفار . أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التى جعـــل اللّـ * ـه بهـا ذنب عبده مغفورا

وقال آبن فارس فى المُجْمَل : «حِطّة» كلمة أُمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيــل لبنى إسرائيل آدخلوا البــاب سُجّدًا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبــدّلوا] (٢) فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَــعَرة " . وأخرجه البخارى وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ فى شعَرة ". فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَــعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهى لفظة عبرانية، تفسيرها : حنطة حمراء؛ حكاها آبن قتيبة ،وحكاه الهروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا وآستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال آبن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . ورُوِىَ أن الباب جُعــل قصيرا ليدخلوه ركّعًا فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعــة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبُّــد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله . و إن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى إلى ذلك المعنى؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

---

(١) فى الأصل : « والحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعى وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سِيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : انْقُصْ من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . و روى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدّين والأتق والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعـالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهـم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأَسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النَّخَعِىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلمـاء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهـم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصًا ذكر بعضها فى مواضـع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء،

والزيادة والنقصان . و إذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجـوز بالعربية أولى . آحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ ، وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نَضّر الله آمرأً سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ونبيّك الذى أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فرُبّ حاملِ فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ؛ و إن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقع على الكافة ، وآسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! و إنمـا فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلمـا قال : "ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة . ومستقبح فى الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل . و إنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسـله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأوّل، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عُدمت لم يجز . قال آبن العربى : الخلاف فى هذه المسألة إنمـا يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية ؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز ؛ إذ الطباع قد تغـيّرت ، والفهوم قد تباينت ، والعوائد قد آختلفت ؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم آبن العربى رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم ، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب ، والله أعلم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وآبن عامر بالتاء مع ضمها ، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها ، وهى أبينها ؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا» فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى ؛ والتقدير وقلنا آدخلوا الباب سُجَّدًا نغفر ، ولأن بعده « وسَنَزِيدُ » بالنون . و «خطاياكم» آتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لمـا حال بين المؤنث وبين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٌ» . وحَسُن الياء والتاء وإن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « وإذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فآستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ؛ فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايىءُ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلمـا آجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطايىءُ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ، فأبدلت من الثانيــة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دوابّ .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . و يقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . و يقال : يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد فى إحسان من هو محسن؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو ٱسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحّح عقد توحيده، وأحسن سـياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُـمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَـا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فية أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع؛ أى فبدّل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البـلاء مالقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والٱبتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ، وقُرِئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْـدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . و بدّله الله من الخوف

أمنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره و إن لم يأت ببدَل. وآستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر. قال آبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . و بدَلُ الشيء : غيره؛ يقال: بَدَلٌ وبِدْلٌ، لغتان؛ مثل: شَبَه وشِبْه،ومَثَل ومِثْل،ونكَل ونِكْل. قال أبو عبيد(1) : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وَجَع يكون في اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام؛ كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : ممـا كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم؛ ومنه قول الخنساء :

تعـرّقني الدهرُ نَهسًا(2) وحَزًّا * وأوجعني الدهرُ قَرْعًا وغَمْزًا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثاني: مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام؛ كقوله تعـالى : «ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم: الحاقة ما هي، والقارعة ما هي، ومثله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ» . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيمًا لمـا ينيلهم من جزيل الثواب؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لمـا ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبـا * كان الغـرابُ مقطّع الأوداج

وقد جمع عَدِيّ بن زيد المعنيين فقال :

(1) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .

(2) في بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره ؛ أى جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغّص الموتُ ذا الغِـنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر:

ألا حبّـذا هندٌ وأرضٌ بهـا هندُ * وهندٌ أتى من دونها النأْىُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها.

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿رِجْزًا﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وٱبن مُحَيْصن بضم الراء. والرجز: العذاب (بالزاى)، و(بالسين): النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى: «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ»؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكِسائى. وقال الفرّاء: الرِّجْز هو الرِّجْس. قال أبو عبيد: كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى. قال الفرّاء: وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم): ٱسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى: «والرُّجْزَ فَاهْجُرْ»[1]. والرَّجَز (بفتح الراء والجيم): نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعرا. وهو مشتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ٱرتعشت أفخاذها. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى بفسقهم. والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2]. وقرأ ٱبن وثّاب والنَّخَعِى: «يَفْسِقُون» بكسر السين.

قوله تعـالى: وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

فيه ثمـانى مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين. والسين سين السؤال؛ مثل: ٱستعلم وٱستخبر وٱستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السَّقْى لقومه. والعرب تقول: سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى[3]؛ قال:

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦٥   (٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء.   (٣) هو لبيد (كما فى اللسان).

سق قومى بنى مَجْدٍ وأَسْقِ * نُمَيراً والقبائلَ من هِلال

وقيل : سقيتُه من سقى الشَّفَة، وأسقيته دَلَلْته على الماء .

الثانيــة — الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح . وقد آستسق نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلّى متواضعًا متذلّلًا متخشعًا مترسِّلًا متضرِّعًا، وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد؛ فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم في حديث آبن عمر: "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثــة — سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة؛ وبهذا قال جمهور العلماء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صلاة ولا خروج، وإنما هو دعاء لا غير . وآحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فآكتفى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان سُنّة؛ ولما قصد البيان بيّن بفعله ، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة « هود »(١) إن شاء الله .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف ، وهو آسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال(٢) :

* على عَصَوَيْها سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ(٣) *

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى سورة « هود » ، وإنما هو مذكور فى سورة « نوح » ج ١٨ ص ٣٠٢

(٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * فجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

والجمع عُصيّ وعِصِيّ ، وهو فعول ، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ؛ وأعْصٍ أيضا مثله ؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ . وفي المثل: «العَصَا من العُصَيّة» أي بعض الأمر من بعض. وقولهم : « أَلْقَى عصاه » أي أقام وترك الأسفار؛ وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها وآستقر بها النَّوى　*　كما قَـرَّ عَيْنًـا بالإياب المسافِرُ

وفي التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـا » (١) . وهناك يأتي الكلام في منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أول لحن سُمِع بالعراق هذه عصاتي . وقد يعبَّر بالعصا عن الآجتماع والآفتراق ؛ ومنه يقال في الخوارج : قد شَقُّوا عصا المسلمين ؛ أي آجتماعهم وآئتلافهم . وآنشقّت العصا؛ أي وقع الخلاف؛ قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وآنشقّتِ العصا　*　فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّـدُ

أي يكفيك ويكفي الضحاك . وقولهـم : لا ترفع عصاك عن أهلك؛ يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف، وقياس جمعه في أدنى العدد أحجار ، وفي الكثير حِجار وحِجارة؛ والحجارة نادر . وهو كقولنا : جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة؛ كذا قال آبن فارس والجوهري .

قلت : وفي القرآن « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِـمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا، إلا أن يريدا أنه نادر في القياس كثير في الآستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ في الكلام حذف؛ تقديره فضرب فآنفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد في وصولهم إلى المراد؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد. والآنفجار: الآنشقاق؛ ومنه آنشق الفجر . وآنفجر الماء آنفجارا : آنفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر الماء . والآنبجاس أضيق من الآنفجار ؛ لأنه يكون آنبجاسا ثم يصير آنفجارا . وقيل : آنبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق ؛ بمعنًى واحد؛ حكاه الهَرَوِيّ وغيره .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٦ .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « ـا نفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبدا لصحة معناها . «عَيْناً» نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز «عشْرة» وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال: عَيْنُ المـاء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة[1]، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمسًا أو سِتًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن : أى قليـل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء[2] . والعين: الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من المـاء مُشَبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج المـاء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لمـا كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين المـاء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لمـا استسقى موسى عليه السـلام لقومه أمر أن يضرب عنـد استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربعًا طُورِيًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلّتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له ٱسم الحجـر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لمـا اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال ٱبن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعًا ، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن المـاء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة وباء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : «عين الركية» (براء مفتوحة وياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها .

(٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرّك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع المـاء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم، يخرج المـاء من بين لحم ودم! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأُتِيَ بتَــوْر[1] فأدخل يده فيه؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّــر من بين أصابعه ويقول : "حيّ على الطّهور" . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيــل كالقبائل فى العــرب ، وهم ذُرّية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليــه السلام؛ وكان لكل سِــبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحَجَر أربعــة أوجه، يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمســون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضــع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنــة — قوله تعــالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى، واشربوا المـاء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيّاً ، وعثا يَعْثُو عُثُوّاً ؛ وعاث يَعِيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَاثًا؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد؛ ومنه العُثّة، وهى السُّوسة التى تَلْحَس الصّوف . و﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها.

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهم فى التيـه حين مَلُّوا المنّ والسّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأوّل بمصر . قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرِهم عِكرِ السّوء (١) ، وآشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقـالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكَنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما آثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء ؛ كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الآستعانة ببعض ؛ لآستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من آتخذ العبيـد والخـدَم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » وقـال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أى ما شربوه من الخمر ، على ما يأتى بيانه (٢) . وإن كان السلوى العسل ــ كما حكى المؤرّج ــ فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرّ والتمر ، كما فى حديث أبى سعيد الخُدْرى قال : كنّا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(١) العكر (بكسر أوّله وسكون ثانيه) : الأصـل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِى كل شىء .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ .

شعير؛ الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت إلى سـوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال : طعمه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام؛ قال أبو خِراش :

أَرُدّ شُجـاعَ البطن لو تعلمينـه[1] * وأُوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ
وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فانتهى * إذا الزادُ أمسى لِلْمُزَلَّج[2] ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : "إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُقْم[3]" . وآستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : "إذا آستطعمكم الإمامُ فأطعموه" . يقول : إذا آستفتح فآفتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما[4]

قوله تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ لغة بنى عامر «فادعِ» بكسر العين لآلتقاء الساكنين؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و « يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخرِجْ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(١) فى ديوان الهذليين واللسان مادّة (طعم) : « قد تعلمينه » .　(٢) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل .　(٣) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .
(٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

نعاما بخطمة صعر الخـدو * د لا تطعم الماء إلا صياما
وقبله :　فأما بنـو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء ولا تطعمه » .

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، فى قوله « مِمّا » زائدة فى قول الأخفش ، وغير زائدة فى قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ « يُخرِج » فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأوْلى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا مما تُنبت الأرض مأكولا . فـ « مِن » الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليه ، وكذا ما بعده ؛ فاعلمه . والبَقْل معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهى قراءة يحيى بن وَثّاب وطلحة ابن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قِثّاء : قَثَائِىّ ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِىّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم ؛ أى أطعمتهم ذلك .

[وفَثَأْتُ(1) القِدْرَ سكّنت غليانها بالماء ؛ قال الجَعْدىّ :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أى أعيا وانبهر . وأفثأ الحَرُّ أى سكن وفتَر . ومن أمثالهم فى اليسير من البِرّ قولهم : « إن الرَّثِيئة تفثأ الغضب » . وأصله أن رجلا كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم . الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخَثُر ؛ والاسم الرَّثِيئة . وارتثأ اللبن خثر] .

وروى ابن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّى تعالجنى للسِّمْنة ، تريد أن تُدخلنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(1) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة « قثأ » بالقاف ؛ والواقع أنه من مادة « فثأ » بالفاء .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف فى الفُوم، فقيل : هو الثُّوم؛ لأنه المشا كل للبصل . رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[1] . وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر . وقرأ آبن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة ؛ وروى ذلك عن آبن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منـازلهم إذ ذاك ظـاهرةً ＊ فيها الفَرَادِيسُ والفُومانُ والبَصَـلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئـامُ الأصول ＊ طعـامُكمُ الفُـومُ والحَوْقَـلُ

يعنى الثّوم والبصـل ؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطـة؛ روى عن آبن عباس أيضا وأكثر المفسرين؛ وآختاره النحاس، قال : وهو أولى، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيْبِر بنظير لِروايته ؛ وإن كان الكسائى والفراء قد آختارا القول الأوّل ، لإبدال العرب الفاء من الثاء ، والإبدال لا يقاس عليه ؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد آبن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى النـاسِ شخصًا واجدًا ＊ ورَدَ المدينــةَ عن زراعة فُـومِ .

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرّ فيه، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد ＊ نزل المدينـة عن زراعة فُومِ[2]

وقال آبن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبِيئُهم[3] لـمّـا أتانا ＊ بِكَفِّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ٢١ ص ٢١١) طبع أوروبا ، « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقــد نظرت إلى الشموس ودونها ＊ حرج من الرحمن غــير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصول : « وقال رَبِيسهم » . الربئ . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر القوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى « كَفْه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمّص؛ لغةٌ شاميّة . وبائعه فامىّ ، مغيّر عن فُومىّ؛ لأنهم قد يغيّرون فى النسب؛ كما قالوا : سُهْلِىّ ودُهْرِىّ . ويقال : فَوِّموا لنا ؛ أى آختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُختَــبز .

مسئلة — آختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضًا — إلى المنع ، وقالوا : كل مامَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رســول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيّــه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجــة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ ببَدْر(1) فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ؛ قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول؛ فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها ، قال : "كُلْ فإنّى أُناجى مَن لا تُناجى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّنٌ فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبىّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ولكنى أكْرَهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو ســعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحــريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجــرة أكره ريحها" . فهــذه الأحاديث تُشــعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم فى حديث جابر بمـا يقتضى التسوية بينه وبين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هــذه البقلةِ الثــومِ — وقال مرة : من أكل البصل والثــوم

(1) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق؛ شبه بالبدر لا ستدارته .

والكُرّاث ــ فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم " . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسـجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيـع ، فمن أكلهما فلْيُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرةٌ تخرج بالإنسان ، وربمـا قتلت . وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليـكِ إمارةٌ　＊　نجوْتِ وهـذا تحملين طَليق (١)

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ إليه المنيّة أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلّفها هَوْلَ الظـلامِ ولم أزَلْ　＊　أخا الليـلِ مَعْدوسًا إلىّ وعادِسَا

أى يُسار إلىّ بالليل . وعَدَسْ : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثَرُ عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم من حديث علىّ أنه قال : " عليكم بالعـدس فإنه مبارَك مقـدّس وإنه يَرِق القلب ويكثر الدَّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم " ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم (٢) ، ويوما بعدس . قال الحَلِيمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضـيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخِفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهى الفُوم على الصحيح ، والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ .　(٢) فى بعض نسخ الأصل : « بملح » .

عليه وسلم لم يَشبع هو وأهله من خُبزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُوّ أى القُرْب فى القيمة ؛ من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ؛ أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أى الأحط ؛ فأصله أَدْوَن ، أفْعَل ، قُلِب بجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرئ فى الشّـواذّ « أدنى »(١) . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذى هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذى هو خير .

واختُلِف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأوّل — أن البقول لمـا كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثـانى — لمـّا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هـذه الخصائل ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثـالث — لمـّا كان ما منّ الله به عليهـم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابـع — لمـّا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمـّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيةَ فى حِلّه وخُلوصـه لنزوله من عند الله ، والحبـوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز» وهى قراءة زهير الفرقبى » .

مسئلة — فى هــذه الآية دليلٌ على جــواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلّم يحبّ الحَلْوى والعَســل ، ويشرب المــاء البارد العَذْب ، وسيأتى هذا المعنى فى « المــائدة »[1] و « النحل »[2] إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْراً ﴾ تقدّم معنى الهبوط[3] ، وهذا أمر معناه التعجيز ، كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التِّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعطوا ما طلبوه . و « مِصْراً » بالتنوين منــكَّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْراً من الأمصار غير معيّن . وروى عكرمة عن ٱبن عباس فى قوله : « ٱهْبِطُوا مِصْراً » قال : مِصْراً من هــذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفهــا أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما ٱقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبمــا تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعــد التِّيه . وٱستدلّ الآخرون بمــا فى القــرآن من أن الله أَوْرث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ، وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضــــل مِئْزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ[4]

بجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هــذا ، لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تَصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرف . وقرأ الحسن وأَبَان بن تَغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَىّ بن كعب وقراءة ٱبن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ، ذكره ٱبن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومِصر الدّار : حدودها . قال ٱبن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم « ٱشترى فلان الدار بمُصُورها » أى حدودها ، قال عَدِىّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به * بين النهار وبين الليــل قد فَصَــلاَ

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٣ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ . (٣) راجع ص ٣١٩ .
(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيهــا اللبن ويشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ آبن وَثّاب والنَّخَعِي «سِألتم» بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى أُلزِموهما وقُضِىَ عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق فى جَرِير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجِها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أى حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ و إن كان غَنِيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزْية؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع، وهى مأخوذة من السكون؛ أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذِّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن آبن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ » قال : هم أصحاب القَبَالات[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ وبَاءُوا ﴾ أى آنقلبوا ورجعوا؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أَبُوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وأُلزِمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء؛ أى سواء، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر[(٢)] :

أَلَا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتَتَّقِى * محارِمَنا لا يَبْؤُؤُ الدّمُ بالدّمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا[(٣)]

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة[(٤)] .

(١) فى تفسير آبن كثير : « ... ... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى، ولا شاهد فيه، إذ الرواية فيه : «فآبوا...وأبنا» ومادة « آب » غير مادة « باء » و إن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

قوله تعـالى : ﴿ذَلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذّبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على «يكفرون». ورُوِىَ عن الحسن «يُقَتِّلُون» وعنه أيضا كالجماعة. وقرأ نافع «النَّبِيئين» بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين: فى سورة الأحزاب: «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ»(1). و«لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا» فإنه قرأ بلا مَدّ ولا همز. وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين. وتَرَكَ الهمزَ فى جميع ذلك الباقون. فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر؛ وآسم فاعله مُنْبِئ. ويجمع نبيء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبيّ نُبآء؛ قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِيّ يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم:

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مُرْسَـلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز. وآختلف القائلون بترك الهمز؛ فمنهم من آشتق من همز، ثم سهّل الهمز. ومنهـم من قال: هو مشتق من نَبَا يَنْبُـو إذا ظهر. فالنبيّ من النبوّة وهو الآرتفاع؛ فمنزلة النبيّ رفيعة. والنبيّ بترك الهمز أيضا الطريق، فسُمِّيَ الرسول نَبِيًّا لآهتداء الخلق به كالطريق؛ قال الشاعر(2):

لَأصبح رَتْمًا دُقاقَ الحَصَى * مكانَ النَّبِيِّ من الكاثِبِ

رَتَمْت الشيء: كسرته؛ يقال: رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثاء جميعا. والرتم أيضا المرتوم أى المكسور. والكاثب آسم جبل. فالأنبياء لنـا كالسُّبُل فى الأرض. ويروى أن رجلا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: السلام عليك يانبيء الله؛ وهمز. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لستُ بنبيء الله — وهمز — ولكنى نبيّ الله" ولم يهمز. قال أبو علىّ: ضُعِّف سند هذا الحديث؛ ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح: * ياخاتَمَ النُّبَآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار.

---

(1) جـ ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣.

(2) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان).

قوله تعـالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنمـا خرج هـذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق؛ فكان هـذا تعظيما للشُّنْعة عليهم؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق؛ ولكن يُقتل على الحق؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشيء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبيـاء إلا من لم يؤمر بقتال، وكلُّ مَن أمر بقتال نُصر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بمـا » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصتِ النّواةُ إذا اشتدّت . والاعتداء : تجاوز الحـدّ فى كل شيء ؛ وعُرف فى الظلم والمعـاصى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَاخِرِ وَعَمِـلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِـمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صـدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسـلم . وقال سُـفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرنهـم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ معناه صاروا يهودا؛ نُسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليـه السلام؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت

عن لفظها . وقيل : سُمُّــوا بذلك لتوبتهـم عن عبـادة العجل . هاد : تاب . والهـائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى آمرؤ من حُبّه هائدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إنَّا هُــدْنَا إلَيْكَ » أى تُبْنَا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيـادة إذا تابوا . وقال آبن عرفة : « هُدْنَا إليــك » أى ســكنّا إلى أمرك . والهـوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبوالسَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثــة ــ قوله تعــالى : (وَٱلنَّصَارَى) جمــع ، واحده نَصْرانىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء ؛ وهذا قول سـيبو يه . والأنثى نصرانة؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[1] :

صدّتْ كما صــدّ عمـا لا يَحِلّ له * ساقِي نَصارَى قُبيل الفِصْحِ[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرىّ؛ كمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد سـيبو يه شاهدًا على قوله :

تــراه إذا دار العِشَــا مُتَحَنِّفًــا * ويُضْحِى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجـد رأسُها * كما أسجـدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانِه " . وقال عليه السلام : " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ

---

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصــل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى؛ يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النـار " . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها؛ وقياسـه النصرانيون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل : عيسى الناصرى؛ فلما نُسب أصحابه إليـه قيـل النصارى؛ قاله آبن عباس وقتادة . وقال الجـوهرى : ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارَا * شمَّـرت عن ركبتِىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعــة — قوله تعـالى : (والصَّابِئِيـنَ) جمـع صابئ، وقيل : صابٍ؛ ولذلك آختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبأتِ النّجوم إذا طلعت، وصَبَأتْ ثَنِيَّةُ الغلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعـله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســـة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم — على ماياتى بيانه فى المـائدة (١) — وضَرْبُ الجزية عليهم؛ على ماياتى فى سورة « براءة » (٢) إن شـاء الله . وآختُلف فى الصابئين ؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه . قال آبن المنذر وقال إسحاق : لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل: هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجِيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة ، لا تؤكل ذبائحهم . آبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس ؛ رآهم زياد

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٠ .

عن لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى آمرؤ من حُبّه هائدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أى تُبْنَا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيادة إذا تابوا . وقال آبن عرفة : « هُدْنَا إليك » أى سكنّا إلى أمرك . والهوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثة — قوله تعالى : (وَٱلنَّصارَى) جمع ، واحده نَصْرانىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء ؛ وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام؛ قال الشاعر[1] :

صدّتْ كما صدّ عما لا يَحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبيل الفِصْحِ[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ؛ كمَهْرِىّ ومَهَارَى . وأنشد سيبويه شاهدًا على قوله :

تـراه إذا دار العِشَا مُتَحَنِّفًا * ويُضْحِى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشـد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنَصِّرانِه " . وقال عليه السلام : " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ

---

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى؛ يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النـار » . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها، وقياسـه النصرانيون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصِرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل : عيسى الناصرى، فلما نُسب أصحابه إليـه قيـل النصارى؛ قاله ٱبن عباس وقتادة . وقال الجـوهرى : ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارَا * شمّـرت عن ركبتىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعـة — قوله تعـالى : (والصَّابِئِينَ) جمـع صابئ، وقيل : صابٍ؛ ولذلك ٱختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبأتِ النّجوم إذا طلعت، وصَبَأتْ ثَنِيّةُ الغلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعـله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســـة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم — على مايأتى بيانه فى المـائدة[1] — وضَرْبُ الجزية عليهم؛ على مايأتى فى سورة « براءة »[2] إن شـاء الله . وٱختُلف فى الصابئين ؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه . قال ٱبن المنذر وقال إسحاق : لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وٱبن أبى نَجيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة ، لا تؤكل ذبائحهم . ٱبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس ؛ رآهم زياد

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٠ .

فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتُوا ببحر من خَلْفهم ، ونار من قِبَل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بها عباده ؛ فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ٱبن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعالى ٱخترع وقت سجودهم الإيمان [فى قلوبهم[1]] لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا ؛ فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِد وٱجتهاد ؛ قاله ٱبن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بما فيه . وقيل : بقوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أى تدبّروه وٱحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لها ؛ على ما قاله الشعبي وٱبن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ[2] » . وقد روى النسائىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ مِن شرّ الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فما لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ[3] » . فأُمِرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا ؛ لغلبة الجهل وطلب الرياسة وٱتباع الأهواء . روى الترمذىّ عن جُبَيْر بن نُفَير عن أبى الدرداء قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هذا أوانٌ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية .	(٢) راجع جـ ٢ ص ٤١	(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدِروا منه على شيء ؟ . فقال زياد بن لَبِيد الأنصاريّ : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنَقْرأنه ولَنُقرِئَنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : " ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأَعُدُّك من فقهاء المدينة هـذه التوارة والإنجيل عند اليهود والنصارى فـاذا تُغنى عنهم " وذكر الحديث ، وسيأتى . وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعيّ من طريق صحيحة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : " ثَكِلَتْك أمُّـك يا زياد هـذه التوارة والإنجيل عند اليهـود والنصارى " . وفى المُوَطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان : « إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضَيّع حروفه ، قليلٍ مَن يسأل ، كثيرٍ مَن يُعطى ، يطيلون الصلاة ويُقصِرون فيـه الخطبـة ، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتى على النـاس زمان قليلٌ فقهاؤه ، كثيرٌ قرّاؤه ، تُحفظ فيه حروف القرآن ، وتُضيّع حدوده ، كثيرٌ من يسأل ، قليلٌ من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصِرون الصلاة ، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقـد قال يحيى : سألت ٱبن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم ؟ قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى ٱفترض عليهم . وتقـدّم القول فى معنى قوله : « لعلكم تتقون »[1] . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ؛ ثم ٱستعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات إتساعا ومجازا . وقـوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعـد البرهان ، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقـوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ « فضلُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ؛ لأن العرب ٱستغنت عن إظهاره ؛ إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر . والتقدير فلولا فضل الله تداركُكم . ﴿ وَرَحْمَتُـهُ ﴾ عطف على « فضل » أى

---

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

لطفــه و إمهاله . ﴿لَكُنتُم﴾ جواب «لولا» . ﴿مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان، وقد تقدّم[1] . وقيل : فضله قبول التوبة، و «رحمته» العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ابن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ «علمتم» معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمّى . فإذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه : «علمتم» بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقــد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : «لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» . كل هــذا بمعنى المعرفة، فاعلم . «ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ» صلة «الذين» . والاعتداء . التجاوز، وقد تقدّم[2] .

الثانيــــة — روى النّسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهودىّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هــذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين[3] . فأتيا رسول الله صلى الله عليــه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات ؛ فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتــلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحــق ولا تمشُوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تعــدوا فى السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال : "فــا

(١) راجع ص ٢٤٨ (٢) راجع ص ٤٣٢ (٣) الذى فى نسخة النسائى : «لو سمعك كان له أربعة أعين» مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتبعونى " ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرِّيته نبىّ ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان »[(1)] إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت. والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحِيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة[(2)] وألقاها فى ذَنَب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِىَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف »[(3)] قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلقتها. وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . واختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (2) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص ٣٠٦

(3) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال آبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال آبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما آحتج به آبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفار ألاّ ترونها إذا وُضِع لها ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسخَتْ" فمتأوّل على ما يأتى . قال آبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال آبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلف إلى زمان عمرو؟ قلنا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم(١) حتى يكون أبلغ فى الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم(١) ، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسرّون وما يُعلنون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هـذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمرو بن ميمون الأَوْدىّ فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة آجتمع عليها قردة

(١) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسـعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارىّ من كتابه ، فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ، فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمىّ عن الفَرَبْرِىّ أصلًا شىء من هذا الخبر فى القردة ، ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير : قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه «قد زنت» . فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب عمرَو بن ميمون وأن كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأن رواته مجهولون . وقد ذكره البخارىّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ، وليسا ممن يُحتجّ بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلّف ، وإقامة الحدود فى البهـائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفأر" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسخت" وما كان مثله ، فإنمـا كان ظنًّا وخوفًا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما ممـا مُسخ ، وكان هذا حَدْسًا منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلًا ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى ممـا مسخ ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلك قومًا أو يعذّب قومًا فيجعل لهم نسلًا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك" . وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود م فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

فدلّ على صحة ما ذكرنا . و بالله توفيقنا . ورُوِىَ عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنما مُسِخَتْ قلوبُهم فقط، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ « قردة » خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأْته خَسْأً وخَسِئَ وٱنخسأ ؛ أى أبعدته فبَعُدَ . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا »[(1)] أى مبعَدًا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَا »[(2)] أى تباعدوا تباعد سخط . قال الكسائى : خَسَأَ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤَ الرجل قماء وقماءة صار قميئًا، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمّة التى مُسِخت . وقيل : الحيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنّكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيود . وسُمِّيت القيود أنكالا لأنها يُنْكَل بها؛ أى يمنع . و يقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل[(3)]؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل، ونَكِل يَنْكَل إذا ٱمتنع . والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَكِّل مَن وراءهم ؛ أى تُجَبِّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ٱبن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكِّل بالإنسان؛ قال[(4)] :

* فَٱرمِ على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لا غير . (٤) القائل رباح المؤمل . وقبله :

* يارب أشقانى بنو مؤمل * وبعده : * بصخرة أو عرض جيش جحفل *

(من شرح القاموس) .

قوله : ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ٱبن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿وَمَا خلفها﴾ لمن يعمل بعدها مثـل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لمـا مضى من الذنوب ، ولمـا يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ٱبن عطية : وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ٱبن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . وٱختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن ٱبن عباس أيضا : « لمـا بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : «لمـا بين يديها » من ذنوبهم، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعـالى : ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال ، ووَزْنُهـا مَفْعِـلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الاسم . قال الخليل : الوَعْظ التّذكير بالخير فيما يَرِق له القلب . قال المـاوَرْدىّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعـاندين . قال ٱبن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة . وقال الزجاج : « وموعظة للتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ ٱنتهكوا حُرَم الله فى سَبْتهم .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حُكى عن أبى عمـرو أنه قرأ « يَأْمُرْكم » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هـذا لأن الراء حرف الإعراب، وإنمـا الصحيح عن أبى عمـرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿أَنْ تَذْبَحُوا﴾ فى موضع نصب بـ « يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿بَقَـرَةً﴾ نصب بـ « تذبحوا » . وقـد تقدّم[1] معنى الذبح، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

لمن يخبرهم عن الله تعـالى ، وظاهر هـذا القول يدلّ على فساد آعتقاد مَن قاله . ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيّ قد ظهرت معجزته ، — وقال : إن الله يأمرك بكذا — : أتتخذنا هُزُؤا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم اوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهـة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعَلَها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهـل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل آسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُـل ورُسْل ، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه(١) إن شاء الله تعـالى .

مســـئلة — فى الآية دليل على منع الآستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبـه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الآستهزاء بسبيل؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمـة بعده . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فـازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيهـا القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلًا ! فتلَا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الآستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

قوله تعالى : قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغة بنى عامر «ادعِ» وقد تقدّم[(١)] . و﴿يُبَيِّنْ﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لمـا أمر ببقرة اقتضى أىّ بقرة كانت ، فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخاض ، ثم نَسَخهُ بابنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المُسِنّة . وقد فَرَضَت تَفرِض فروضًا؛ أى أسنّت . ويقال للشىء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيّبَ أصداغى فرأسِى أبيضُ * مَحامِـلٌ[(٢)] فيهـا رجال فُــرَّضُ

يعنى هَرْمَى؛ قال آخر :

لعَمْرُكَ[(٣)] قــد أعطيتَ جارك فارضًا * تُساق إليـــه ما تقــوم على رِجْلِ

أى قديمـا ؛ وقال آخر :

يا رُبّ ذى ضِغْنٍ علىّ فارِضِ * له قُــروء كقُروء الحـائِضِ

(١) راجع ص ٤٢٣

(٢) فى الصحاح للجوهرى : « محافل » بالفاء ، وفيه رواية أخرى رواها ابن الأعرابى هى : * محامل بيض وقـوم فرض *
يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة «فرض» .

(٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عَنَى بَقَرة هَرِمَة .

لمن يخبرهم عن الله تعالى ، وظاهر هذا القول يدلّ على فساد اعتقاد مَن قاله . ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته، — وقال : إن الله يأمرك بكذا — : أتتخذنا هُزُوًا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم اوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفي هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدِّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهي تجري على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاي كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُل ورُسْل ، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتي في موضعه(1) إن شاء الله تعالى .

مسـألة — في الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الاستهزاء بسبيل؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمة بعده . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضي الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضي ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلا ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الاستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

---

(1) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو ٱمتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ٱبن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغـة بنى عامر « ٱدع » وقد تقدّم (1) . و﴿يُبَيِّن﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿مَا هِيَ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل؛ لأنه لمـا أمر ببقرة ٱقتضى أىّ بقرة كانت ، فلمـا زاد فى الصفة نسـخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخهُ بٱبنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لمـا عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارِض : المُسِنّة . وقد فَرَضَت تَفْرِض فروضًا؛ أى أسنّت . و يقال للشىء القديم فارض؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغى فرأسى أبيضُ ❊ مَحَامِـلٌ (2) فيهـا رجال فُــرَّضُ

يعنى هَرْمَى؛ قال آخر :

لَعَمْرُكَ (3) قـد أعطيتَ جارك فارضـاً ❊ تُساق إليــه ما تقـوم على رِجْلِ

أى قديمـا ، وقال آخر :

يا رُبَّ ذى ضِغْـن علىّ فارضِ ❊ له قُـروء كقُروء الحـائض

---

(1) راجع ص ٤٢٣ . (2) فى الصحاح للجوهرى : « محافل » بالفاء ، وفيـه رواية أخرى رواها ٱبن الأعرابى هى : ❊ محامل بيض وقـوم فرض ❊
يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة « فرض » .
(3) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنى بقرة هَرِمَة .

أي قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولَا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارضٌ» خبر مبتـدأ مضمر ؛ أي لا هي فارض وكذا «لا ذلول» ، وكذلك «لَا تَسْقِي الْحَـرْثَ» وكذلك «مُسَلَّمَةٌ» فاْعلمه . وقيل : الفارض التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التي لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التي ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِـدْ * أصبحتَ مِنّى كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضـا في إناث البهائم وبني آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل؛ وهي مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِيّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التي قد ولدت بطنـاً أو بطنين ؛ وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْتٌ بَهِيمِ اللَّوْنِ ليس بفارِضٍ * ولا بِعَـوان ذاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفِ

فرس أَخْصَف : إذا ٱرتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهـد : العَوان من البقر هي التي قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغـة . ويقال : إن العَوان النّخلةُ الطويلة ؛ وهي فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ (١)

أي لا هي صغيرة ولا هي مُسِنّة؛ أي هي عَوان، وجمعها «عُونٌ» بضم العين وسكون الواو؛ وسُمع «عُوُن» بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنَت تَعْويناً .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجـديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فمـا تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفَوْر؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحـة ذلك أنه تعـالى ٱستقصرهم حين لم يبادروا إلى فعـل ما أُمِروا به فقال :

(١) في الأصول : «تهز» بالزاي. والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى «تهر الناس» أي تصيّرهم يهرّونها ؛ أي يكرهونها . ولقحت : ٱشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة مِعْوَجة .

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيـل : لا ، بل على التراخي؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب . قاله ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ « ما » ٱستفهام مبتدأة، و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمـرة . واللَّوْن : النَّوع . وفلان مُتَلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يـوم تتلوّنْ * غير هـذا بك أجمـلْ

ولَوَّن البُسْرُ تلوينًا : إذا بدا فيه أثر النُّضج . واللَّوْن : الدَّقَل، وهـو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة، واحدها لِينة .

قوله : ﴿صَـفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنهـا صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكيّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وٱبن جُبير : كانت صـفراء القرن والظِّلْف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء؛ قال الشاعر (١) :

تلك خَيْلي منـه وتلك رِكابِي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيب

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ، وهـذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا في الإبل؛ قال الله تعالى : « كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لمـا أكّده بالفُقُوع، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب : أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ، ودَجُوجِيّ وغِرْبيب ، وأحمرُ قانِئ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولِهَـاق ويَقِق ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقـعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلة اللغـة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى ؛ كما في اللسان .

الكسائى : يقال فَقَع لَوْنُهَا يَفْقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفَقَع بأصابعه إذا صوّت ؛ ومنه حديث ابن عباس : نهى عن التفقيع فى الصلاة ؛ وهى الفرقعة، وهى غمز الأصابع حتى تُنْقِض [1] . ولم ينصرف «صفراء» فى معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيها ألف التأنيث وهى ملازمة نخالفت الهـاء ؛ لأن ما فيه الهـاء ينصرف فى النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ابن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر ؛ حكاه عنـه النقاش . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : من لبس نعلى جلد أصفرَ قلّ همّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونَهى ابن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود ؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ » تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه فى سَمْتها ومنظرها فهى ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَاهِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَـا وَإِنَّـآ إِن شَـآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمـع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَـا » فذكّره للفظ تذكير البقر. قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر. وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة ؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر. وقرأ الحسن فيا ذكر النحاس، والأعرج فيا ذكر الثعلبى « إن البقر تَّشابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبه» كقراءتهما ،

---

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أُبَيّ «تشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط ؛ لأن التـاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعمر « إن الباقر يشابه » جعله فعلا مستقبلا ، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَـابَهُ » بتخفيف الشـين وضم الهـاء ؛ وحكاها الثّعلبي عن الحسن . النحاس : ولا يجوز « يَشَابه » بتخفيف الشين والياء ، وإنمـا جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لآجتماع التائين . والبقر والباقر والبَيْقور والبَقِير لغاتٌ بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه ، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشابه» . وقيل : إنمـا قالوا : « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لأن وجوه البقر تتشابه ؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليمـان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر ” فِتَنًا كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر “ . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفى آستثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ مّا وآنقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” لو ما[(1)] آستثنوا ما آهتدوْا إليها أبدا “ . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء آهتماماً به . و « شـاء » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه عنـد سيبويه الجملة « إن » وما عملت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعـالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلولٌ » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : « لا ذلول » نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِي « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول ، لا هى تسقى الحرث ، هى مُسَلّمة . ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال) . ورجل ذليل بيّن الذُّل (بضم الذال) . أى هى بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلّل بالعمل .

(1) فى نسخة من الأصل : « لولا » وروى الحديث من طرق بلفظ : « لو لم يستثنوا » .

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ « تُثير » فى موضـع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحْشِيّة ، ولهـذا وصفها الله تعـالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسق الحرث، أى لا يُسْنَى بهـا لسَقْى الزرع ولا يُسق عليهـا . والوقف هاهنا حســن . وقال قوم : « تثير » فعـل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لهـا ، وأنها كانت تحـرث ولا تسق . والوقف على هـذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأوّل أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مســتأنفا ؛ لأن بعــده « ولا تسق الحرث » ، فلو كان مستأنفًا لمـا جمع بين الواو و « لا » . الثـانى — أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الْأَرْضَ » فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ؛ كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيل ويُذرِى تُرْبَه ويُثيره * إثارةَ نَبّاثِ[1] الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسق » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن[2] فإنه عِلْم الأوّلين والآخِرين" وفى رواية أخرى : "من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن" وقد تقدّم[3] . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مســئلة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّـلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والّليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسـلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشـتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا .	(٢) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » .	(٣) راجع ص ٤٤٦ .

الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان . ورُوِىَ عن ٱبن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُـرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد فى ثمنه و يرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه فى آخر السورة فى آية الدَّيْن(١) ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هى مُسَلَّمة . ويجـوز أن يكون وصفًا ؛ أى أنها بقرة مُسَلَّمة من العَرَج وسـائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمـل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعـالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِـعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وَشْى ، حُذفت الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّـية مأخوذة من وَشْى الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثَوْر مُوَشًّى : فى وجهه وقوائمه سـواد . قال ٱبن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغيّر الكلام ويُلوّنه فيجعله ضروبا ويزيّن منه ماشاء . والوَشْى : الكثرة . ووَشَى بنـو فلان : كثروا . ويقال : فَرَسٌ أَبلَقُ ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْـيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقـة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل وُلد له ٱبن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غَيْضَة وقال : اللّهُمّ إنى أستودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل ، فلما كبر الصبى قالت له أمه ــ وكان بَرًّا بها ــ : إن أباك ٱستودع الله عجلة لك فٱذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيهـا ــ وكانت مسـتوحِشة ــ فجعل يقودها نحو أمه ؛ فلقيـه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أُمِروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير ، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرضُوه فى مِلكه ، فاشتروْها منه بوزنها مَرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدّىّ : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكِها دنانير . وذكر مَكّىّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألْآن » قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهاً آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عاداً لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الْآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الْآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر مافيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنيت كما بُنِىَ هذا ، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل ؛ تشبيهاً بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة (١) . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفاً من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنبِّه .

قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّماً » أى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ؛ ومثله كثير ، وقد بيّناه أوّل القصة .

---

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لأبنة له حسناء أحب أن يتزوّجها آبنُ عمّها فمنعه عمّه ؛ فقتله وحمله من قريتـه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وآدّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له آثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وآدّعى هؤلاء على هؤلاء ؛ ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» الآية . ومعنى « ادَّارَأْتُمْ » : آختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الأبتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ «مُخْرِج » ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جملة فى موضـع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمـدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانِىّ . قال آبن عباس : قَتل هـذا الرجلُ عمّه ليرثه . قال آبن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطَّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلَاح فى عَمّه هى كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ؛ ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويَرِث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ؛ لأنه لا يُتَّهم على أنه قتـله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سـفيان الثَّوْرِىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى فى قول له آخَر: لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المـال ولا من الدِّية . وهو قول شُريح وطاوس والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ . ورواه الشَّعْبِىّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرِث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المـال جميعا؛ حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث[1] إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ فما بعدها .

قوله تعـالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب، إذ فيه يُركّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها ؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ٱبن وهب وٱبن القاسم على صحة القول بالقَسَامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان، أو فلان قتلنى، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل ٱعتبار قول المقتول دمى عنـد فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله ٱحتمال ؛ فافترقا . قال ٱبن العربىّ : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلمـا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه . وٱستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدّم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحُكْم بالقَسامة ؛ فرُوِيَ عن سالم وأبى قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة[1] التّوقّف فى الحُكم بهـا . وإليـه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱختلفوا فى كيفيّة الحُكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلفوا ٱستحقُّوا ، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِءُوا . هذا قول أهل المدينة واللّيث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشّعبي والنّخَعِي ، و به قال الثّوْرِى والكوفيّون ؛ وآحتجُّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير آبن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود . و بما رواه أبو داود عن الزُّهْرِى عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهــم : "أيحلف منكم خمسون رجلا" . فأبوا ؛ فقال للأنصار : "آستحقّوا" فقالوا : نحلف على الغيب يا رســول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وســلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيّنــوا (١) . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : "لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لآدّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمــين على المدّعى عليه" (٢) . رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يتابع سعيد فى هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وســلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وآبنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثّقفى وعيسى بنُ حماد و بشرُ بن المفضّل ؛ فهؤلاء سبعة . و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث ســعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال فى حديثه : فوَداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى فى الدّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبى داود مرســل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هــذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِى واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكْم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليــه وسلم حكمًا فى شىء من الأشــياء فيُستثنى من جملة هــذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القــاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى بعض النسخ . (٢) كذا ورد هذا الحديث فى بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هى الحجة فى الدعوى آخرا ، و إلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . وممـا خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسَامة . وقد روى ٱبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " البيّنةُ على مَن ٱدّعى واليميـنُ على مَن أنكر إلّا فى القَسَامة " . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقد ٱحتج مالك لهذه المسئلة فى مُوطّئه بمـا فيه كفاية ؛ فتأمله هناك .

مسـألة — وٱختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها ؛ وهو قول مالك والليث وأحمد وأبى ثَوْر ؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم " . وروى أبو داود عن عمـرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسَامة من بنى نضر بن مالك . قال الدّارَقُطْنِي : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت علىّ بن المدِينى وأحمد بن حنبل والحُمَيْدى وإسحاق بن رَاهَوَيْه يحتجّون به ؛ قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنمـا توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وٱبن عباس ؛ وهو قول النَّخَعى والحسن ، وإليه ذهب الثَّوْرى والكوفيون والشافعى وإسحاق ، وٱحتجوا بمـا رواه مالك عن ٱبن أبى ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبى حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دِيةَ دمِ قتيلكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن ٱستحق ديةَ صاحبه فقد ٱستحق دمه ؛ لأن الدّية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك ٱستحقاقا للدم .

مسـألة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللَّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صـدق مدّعى القتل ؛ كشهادة العـدل الواحد على رؤية القتـل ، أو يرى المقتول يتَشَحّط(١) فى دمه ، والمتّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل . وقد ٱختلف فى اللَّوْث والقول به ؛ فقـال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية ٱبن القاسم عنه .

(١) يتشحط فى دمه : أى يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ .

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أنه شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضي أبو بكر بن العربي: اختلف في اللّوث اختلافا كثيرا؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . ورُوى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسامة . وبه قال مالك واللّيث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللّوْث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة و إن لم يكونوا عدولا . وأوْجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل فى مَحلّة قومٍ و به أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيل إذا وُجد فى مَحلّة قومٍ أنه هَدَر، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســألة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لايقول مالك بالقسامة إلا باللّوْث، فلم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان؛ وبأن العداوة لَوْث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثًا ؛ كما تقدّم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجَبَت القسامة فيه .

مســئلة — وآختلفوا فى القتيــل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شىء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيــل فالدِّيَةُ على المشترى وليس على السكان شىء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّبًا وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذى وُجد القتيل بين أظهرهم شىء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان فى الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبى ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَرَ كانوا عُمَّالاً سُكَّاناً يعملون فوُجد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول آبن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مســئلة — ولا يحلف فى القسامة أقلّ من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم" . فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من آثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك واللّيث والثّورى والأوزاعىّ وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفسُهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعى . قال الشافعى : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له المِلك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة ؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر ٱستحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مســـئلة — فى قصة البقرة هـذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنـا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، وٱختاره الكرخى ونصّ عليه ٱبن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » (1) على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى كما أحْيَا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم (2) . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعـالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (2) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل ؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا ، ولا أشدّ تكذيباً لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو ، كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل ؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ[2] » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِيّ :

أحبّ محمـدا حبًّا شـديدا * وعبّاسا وحمـزة أو عليّا
فإن يك حبّهم رشـدا أُصِبْه * ولستُ بمخطئ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر ، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[4] » وقال : أوَكان شاكًّا من أخبر بهـذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر ، مثل القسوة والقساوة .	(٢) راجع ١٥ ص ١٣٠
(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥	(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٨

تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ٱبن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هي على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهي كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله « كالحِجارَةِ » ؛ لأن المعنى فهى مثل الحجـارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشـدَّ » بالفتح عطف على الحجـارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التميز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنهُ المَاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار (١) . ويشّقّق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهـارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ٱبن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» « لمّا يتشقّق » بتشديد «لمـا» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجِر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذر شقيّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لمـا تنفجر بالتـاء، ولا يجـوز لمـا تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكـون فى تشقق . قال النحاس : يجـوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشّق واحد الشُّقوق؛ فهو فى الأصل مصدر، تقول : بيد فلان ورجليـه شقوق، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ٱرتفع إلى وظيفها (٢) ؛ عن يعقوب . والشّق : الصبح . و«ما» فى قوله :

---

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

«لَمَّا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها ٱسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ» . وقرأ قتادة «وإنْ» فى الموضعين ، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج المـاء منها وتردّيها . قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن ٱبن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : «وإن منها لما يَهْبِط مِن خشيةِ الله» : البَرَد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة؛ كما ٱستعيرت الإرادة للجدار فى قوله : «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» ، وكما قال زيد الخيل :(١)

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ

وذكر ٱبن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : «وإنّ مِنها» راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة؛ أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : "إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

---

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير. ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين ٱنصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

إنى لأعرفه الآن ". وكما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثَبِير(١) اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله ". فناداه حراء : إلىّ يارسول الله . وفى التنزيل: « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبالِ » الآية(٢) . وقال: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »(٣) يعنى تذللاً وخضوعا ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان »(٤) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «بغافل» فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والياء توكيد . « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(٥) . ولا تحتاج «ما» إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم؛ أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام ٥٠

---

(١) ثبير : جبل معروف عند مكة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

* * *

تمّ الجزء الأوّل من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى، وأوّله قوله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للـكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٠٥٠/١٩٨٧